نظرية النشوء والارتقاء وموقف الشيخ حسين الجسر منها

السيد محمد عبد الحميد عبد الله
قسم الثقافة الإسلامية –كلية التربية – جامعة جازان – المملكة العربية السعودية.

المُلخّص

يتناول البحث فلسفة النشوء والارتقاء المادية التي تدعي أن الأنواع الحالية على اختلافها ترجع إلى بضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت في زمن مديد بمقتضى عدة نواميس إذا وجدت وفعلت معا فإن التطور لابد وأن يكون حتميا وآليا، وأخذوا من التشابه بين الإنسان في النواحي التشريحية والأطوار الجنينية دليلا لهم على تطور الإنسان من الحيوان، ويبين موقف الشيخ الجسر الذي يرى أن النشوء والارتقاء لا يزال مذهبا مختلفا في صحته، وهو مجرد فرض لم يقم على الدليل والبرهان اليقيني بل قام على الظن والوهم والخيال، وأن جميع ما ذكره الدهريون بشأن خلق العالم وتنوع الأنواع بالدلائل القاطعة فإن مفكري الإسلام يقولون بها إذ لا شيء من النصوص التي ذكرت في القرآن الكريم ينافي القول بهذا التكوين مع اعتقادهم أن الله تعالى هو الذي أوجد الشمس وكونها وفصل منها الكواكب والأرض، وأما ما ذكروه بشأن خلق عوالم الأرض فنعتقد أن الله تعالى خلق كل نوع مستقلا ولم يخلقه بطريق النشوء وإن كان الله قادرا على كلتا الصورتين، وأما أن كل نوع خلقه دفعة واحدة أو بترق بسبب نواميس وضعها الله فهذا سبيله عندنا التوقف، وأما الإنسان الأول فقد خلق خلقا مستقلا لا بطريق النشوء لأنه لو كان مخلوقا بنشوء وارتقاء لكان الحكمة تقتضي أن يشرح الله تعالى تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه في تفصيل خلق ذريته، وهؤلاء الماديون حاولوا أن يطلبوا ربهم في المحسوسات وما يتشكل في الأوهام، ويتقدر في مجاري الوساوس وخواطر الهواجس، وهذا حيد بالكلية عن صفات الإلهية، فاللبيب من ترك الوهم والخيال جانبا، ولم يتخذ غير البرهان والدليل صاحبا.

الكلمات المفتاحية: النشوء والارتقاء، التطور، الشيخ حسين الجسر، الانتخاب الطبيعي، تنازع البقاء، بقاء الأصلح.

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سينا محمد النبي العربي الأمي الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين، وبعد...

فإن قضية قدم العالم وحدوثه من كبريات المسائل العقدية والفلسفية التي أججت نار الخصومة بين المتكلمين والفلاسفة ردحا طويلا من الزمن، وجاء العلم الحديث ليثبت بما لا يدع مجالا للشك أن العالم حادث من خلال القانون الثاني للحرارة الديناميكية حيث أكد قانون الطاقة المتاحة أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة، ولكن بما أن الحياة لا تزال قائمة ولا تزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير في طريقها، فإنا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا وإلا

العنوان الدائم: كلية أصول الدين والدعوة - الزقازيق - جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية.
البريد الالكتروني: dr.elsayed11@yahoo.com
ردمد: ٦٩٠٥-١٦٥٨

استهلكت طاقته من زمن بعيد.[١] وإذا كان العالم حادث فلابد له من محدث وذلك المحدث هو الله تعالى أحدثه وأوجده من العدم ونوعه إلى أنواعه التي يتألف منها، وأما هذه النواميس التي تشاهد في تكون بعض الكائنات إنما هي أسباب وضعها الله تعالى لذلك، وهو سبحانه غني عنها وقادر على إحداث تلك الكائنات بدونها.

ولكن الملحدين المعاصرين الذين ينكرون وجود الخالق سبحانه، يحاولون التشكيك في صحة هذه المقدمات فالنشوئيون يقدحون في المقدمة الثانية من دليل الحدوث بادعاء أن الأنواع الحالية على اختلافها ترجع إلى بضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت في زمن مديد بمقتضى قوانين الانتخاب الطبيعي أو بقاء الأصلح وتنازع البقاء، وتكون التباينات بين الأفراد، والوراثة، وهذه النواميس إذا وجدت وفعلت معا فإن التطور لابد وأن يكون حتميا وآليا، ومن هنا استبعد النشوئيون الخلق المستقل في حق الإنسان وبقية الحيوانات، وزعموا أن أول موجود من الأجسام الحية هو «البروتوبلازم Protoplasm» تكون من اجتماع بعض العناصر بسبب حركة لأجزاء المادة، ثم أخذ ذلك المكون في التوالد فصارت فروعه ترث صفات منه وتباينه في صفات أخرى، ويحدث الترقي بسبب ذلك إلى أن بلغت رتبة أدنى الحيوان والنبات، ودام الحال على ذلك فنشأ من إرث الفروع لصفات الأصول ومباينتها لها في صفات أخرى على كرور السنين وكثرة التباينات الموروثة أن صار الحال إلى تنوع الأنواع واشتقاق بعضها من بعض ونشأ من تنازع البقاء هلاك الضعيف وبقاء القوي، ونتيجة ذلك على طول الزمان حصول الانتخاب الطبيعي ومن ذلك كله وصلت الأنواع إلى ما هي عليه الآن، ثم رأو أن القرد يشبه الإنسان في صورته وبعض أعماله فقالوا لا مانع أن يكونا اشتقا من أصل واحد[٢].لهذا استخرت الله تعالى في دراسة نظرية النشوء والارتقاء Evolution theory وبيان موقف الشيخ حسين الجسر منها؛ وقد دفعني للكتابة في هذا الموضوع عدة عوامل منها:

١. عدم وجود دراسة علمية متكاملة خصصت لبيان موقف الشيخ حسين الجسر من فلسفة النشوء والارتقاء فوجدت أن من واجبي القيام بهذه الدراسة، وخصوصا أن الرجل كان عالما من أكابر علماء الدين في عصره، واسع الاطلاع على حقائق العلوم الكونية، عظيم التبحر في المسائل الكلامية، والقضايا الفلسفية.

٢. إن الشيخ حسين الجسر كان من العلماء المحققين الذين يشددون النكير على علماء الدين الذين ينكرون حقائق العلم القطعية، ويرى أنهم عقبة في سبيل الإيمان؛ لجهلهم بقواعد الدين وأصوله، وبطرق التوفيق بين نصوصه الحكيمة وبين الأدلة العلمية القاطعة، فكان له من نظرية التطور موقف متميز يختلف كثيرا عن مواقف بعض العلماء منها.

٣. إن الشيخ الجسر عندما تناول فلسفة النشوء والارتقاء بالكلام كان في كلامه شديد الاعتصام بالدين حريصا على التوفيق بين المنقول والمعقول، بعيدا عن الجمود والتعصب الأعمى، صادق اليقين بأن دين

١.راجع العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث لسعد الدين السيد صالح ص٩٥ دار الصفا، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، ١٩٩١م والله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين ص٩١ ترجمة د.الدمرداش سرحان، راجعه: د.محمد جمال الدين الفندي الناشر: دار القلم، بيروت–لبنان.

٢.الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية للشيخ حسين الجسر ص٣١٢، ٣١٣ طبعت على نفقة السيد حسن القرق برخصة مجلس معارف بيروت.

الإسلام لا يتنافى أو يتعارض مع أحكام العقل السليم ومع معطيات العلم الحديث.[١]

٤. أردت أن أوضح أثر نظرية النشوء والارتقاء على العقائد الدينية والقيم الأخلاقية وأثرها في الفلسفات المادية التي أنكرت وجود الله تعالى وقد جاء هذا البحث بتوفيق الله تعالى مكونا من مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة، أما المقدمة فتتضمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث.

المبحث الأول: نظرية النشوء والارتقاء في تاريخ الفكر الفلسفي.

المبحث الثاني: معالم نظرية النشوء والارتقاء عند «تشارلز داروين».

المبحث الثالث: موقف الشيخ الجسر من نظرية النشوء والارتقاء.

المبحث الرابع: شبه النشوئيين الماديين على قضية الإيمان بالله تعالى وموقف الجسر منها.

المبحث الخامس: آثار نظرية النشوء والارتقاء على الأخلاق والتيارات المادية.

وَمَا توفيقي إِلَّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول: نظرية النشوء والارتقاء في تاريخ الفكر الفلسفي.

أولا: النشوء والارتقاء في الفلسفة اليونانية:

لقد ادعى «أنكسمندر Anaximandre»[٢] أن الأحياء كانت في مبدأ نشأتها منحطة ثم أخذت في التطور إلى درجات أعلى؛ إذ كانت في الأصل سمكا مغطى بقشر شائك يعيش في الماء حتى إذا ما اكتمل نموها انتقلت إلى الأرض ونفضت عنها القشر وتكونت أعضاؤها، وعلى النحو السابق فسَّر« أنكسمندر» نشأة الإنسان فلم يوجد الإنسان في مبدأ نشأته على الصورة البشرية المعهودة وإنما انحدر من حيوانات مائية تخالفه في النوع حملته في بطنها إلى أن نمت قواه وتم تكوينه فاستطاع أن يعيش على سطح الأرض ويحفظ حياته بنفسه.[٣]وكذلك يرى أنكساجوراس Anaxagoras[٤] أن الحياة كانت جراثيم تسبح في الفضاء فساقتها مياه الأمطار إلى الأرض حيث تكاثرت وتنوعت على الوجه الذي هي عليه الآن، ويعلل «نكساجوراس» رقي الحيوان على النبات بأنه طليق غير مرتبط بالأرض، وكذلك يعلل رقي الإنسان على الحيوان بأن له يدين، وأن اليد خير الآلات ونموذجها.[٥]

١.راجع قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن لنديم الجسر ص١٩٦ طرابلس، لبنان.

٢.هو أنكسمندر الملطي فيلسوف يوناني، ولد في ملطية باليونان عام٦١٠ق.م وتوفي عام٥٤٧ أو ٥٤٦ ق.م، وكان تلميذا لطاليس وينتمي إلى مدرسة الطبيعيين الأوليين، راجع معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ص١٠٦، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت.

٣.راجع فجر الفلسفة اليونانية د.أحمد فؤاد الأهواني ص٦٢، ٦٣، دار إحياء الكتب العربية، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م، وأضواء على الفلسفة اليونانية د.صلاح عبد العليم ص٤٥، دار الطباعة المحمدية ١٩٩٤م، وأضواء على الفلسفة اليونانية د.أحمد عبده الجمل ص١٠٤، دار الطباعة المحمدية، ٢٠٠٥م.

٤.هو أنكساجوراس الأقلازوماني، ولد في آسيا الصغرى نحو عام ٥٠٠ق.م، ومات في لمسباقيوم عام ٤٢٨ق.م راجع معجم الفلاسفة لطرابيشي ص١٠٦.

٥.تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم ص٥٦، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، وقصة الفلسفة اليونانية د.أحمد أمين، د.زكي نجيب محمود ص٧٨ الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية ١٩٣٥م.

ثانيا: النشوء والارتقاء في الفكر الإسلامي:

لقد أشار القرآن الكريم إلى أن الإنسان يمر بمراحل مختلفة ويتطور من مرحلة إلى أخرى في آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون١٢: ١٤]. ويرى الإمام الرازي أن الله تعالى قد ذكر في هذه الآيات ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا منها الاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة وأكوان الفطرة وهي على مراتب متعددة:

المرتبة الأولى: قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ وَالسُّلَالَةُ الْخُلَاصَةُ لِأَنَّهَا تُسَلُّ مِنْ بَيْنِ الْكَدَرِ.

المرتبة الثانية: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾ ومعنى جعل الإنسان نطفة أنه خلق جوهر الإنسان أولا طينا، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قرارا مكينا لهذه النطفة.

المرتبة الثالثة: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أَيْ حَوَّلْنَا النُّطْفَةَ عَنْ صِفَاتِهَا إِلَى صِفَاتِ الْعَلَقَةِ وَهِيَ الدَّمُ الْجَامِدُ.

المرتبة الرابعة: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالغرفة وهي مقدار ما يغترف، وسمي التحويل خلقا لأنه سبحانه يفني بعض أعراضها ويخلق أعراضا غيرها فسمى خلق الأعراض خلقا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

المرتبة الخَامِسَةُ: قوله:﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً﴾ أَيْ صَيَّرْنَاهَا كَذَلِكَ.

المرتبة السادسة: قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّحْمَ يَسْتُرُ الْعَظْمَ فَجَعَلَهُ كالكسوة لَهَا.

المرتبة السابعة: قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ أي خلقا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا، وناطقا وكان أبكما، وسميعا وكان أصم، وبصيرا وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين، ولا شرح الشارحين.[1] وما ورد في الفكر الإسلامي متصلا بالنشوء والارتقاء لا يتضمن القول بتحول الأنواع وانشقاق بعضها عن البعض، كما يدعي أصحاب النشوء والارتقاء، وإنما يقصد به ترتيب الكائنات والموجودات على أساس تفاضلها وحظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء، بمعنى أن سلسلة أصناف الموجودات فيها من التناسق في طريق الصعود إلى الأعلى ما يجعلها شبيهة بحبات عقد متساوقة في التدرج نحو الأكثر جمالا وندرة[2]، وهذه الفكرة نجدها واضحة عند كثير من الفلاسفة المسلمين مثل الفارابي، وإخوان الصفا، وابن طفيل، وابن مسكويه وابن خلدون. يقول ابن خلدون: "انظر إلى عالم التّكوين كيف ابتدأ من المعادن ثمّ النّبات ثمّ الحيوان على هيئة بديعة من التّدريج آخر أفق المعادن متّصل بأوّل أفق النّبات مثل الحشائش وما لا بذر له،

١.راجع التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ٢٦٤/٢٣، والله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص١٤٧، ١٤٨.

٢.الإنسان في القرآن الكريم "المبدأ والمصير" د.صلاح عبد العليم ص١٤٧ مطبعة الفجر الجديد ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

وآخر أفق النّبات مثل النّخل والكرم متّصل بأوّل أفق الحيوان مثل الحلزون والصّدف ولم يوجد لهما إلّا قوة اللّمس فقط ومعنى الاتّصال في هذه المكوّنات أنّ آخر أفق منها مستعدّ بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الّذي بعده واتّسع عالم الحيوان وتعدّدت أنواعه وانتهى في تدريج التّكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرّويّة".[١] ويقول ابن مسكوية: "فأما اتصال الموجودات التي نقول إن الحكمة سارية فيها حتى إذا أوجدتها وأظهرت التدبير المتقن من قبل الواحد الحق في جميعها حتى اتصل آخر كل نوع بأول كل نوع فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزا كثيرا على تأليف صحيح، وحتى جاء من الجميع عقدا واحدا، فهو الذي ننبه عليه بالدلالة بمعونة الله".[٢] هذا هو مذهب بعض مفكري الإسلام في النشوء والارتقاء الذي يقصدون به ترتيب الموجودات وتدرجها وتفاضلها فقط، وهو مذهب يختلف تمام الاختلاف عن مذهب «داروين» و«لامارك» وغيرهما من الماديين من عدة وجوه منها:-

١. إن التطور القرآني تطور إبداعي يدل على مبدعه ومطوره بينما هو عند النشوئيين تطور مادي ميكانيكي آلي بحت لا مكان فيه للإله، فمفكرو الإسلام يصدرون في نظرتهم عن إيمان بالله تعالى ومن هنا كانت الغاية من التطور عندهم هي التأمل والاعتبار لمظاهر قدرة الله تعالى وحكمته وعلمه.

٢. إن التطور القرآني الإسلامي داخل النوع الواحد ولا يُغيِّر حقائق الأشياء بينما التطور الإلحادي يدعي تغيير الأعيان وتحويلها إلى أعيان أخرى لا صلة لها بالحقائق السابقة بما يتعارض مع أبسط مبادئ الفكر البشري.[٣]

٣. إن النشوء عند المسلمين – لو ثبت — فهو بخلق الله تعالى؛ لقيام الدليل على أنه لا خالق ولا مؤثر في العالم إلا الله، والنواميس التي ترافق هذا التطور ما هي إلا أسباب عادية، وأما النشوء عند الماديين فهو بتأثير تلك النواميس المادية.[٤]

٤. إن الإنسان عند مفكري الإسلام ليس مادة فقط بل هو مركب من عنصرين متمايزين هما المادة والروح، وهاهو ذا الفيلسوف الأندلسي «ابن طفيل» عندما قرر في قصته حي بن يقظان أن الله تعالى أوجد الكائنات بنشوء وارتقاء نجده يثبت النفس الإنسانية، ويثبت أنها عنصر يختلف تماما عن الجسد؛ لأن بها يدرك الإنسان وجود الله تعالى، وأما النشوئيون فقد اتخذوا من نظرية التطور سلاحا لتصفية العقيدة الإيمانية من الوجود.

٥. إن مفكري الإسلام في نظرتهم للتطور يؤمنون بسمو منزلة الإنسان وارتقاء مكانته؛ لأنه مخلوق مكرم من الله تعالى بجميع أنواع التكريم، ويتضح تكريم الله تعالى للإنسان من نواح متعددة منها:-

---

١.المقدمة لابن خلدون ص١٢١ المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، وراجع آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي ص٦١ وما بعدها والرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٠٤، وكبرى اليقينيات الكونية للبوطي ص٢٧١.

٢.الفوز الأصغر للشيخ الإمام ابن مسكوية ص٨٦ بيروت ١٣١٩هـ.

٣.راجع العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث د. سعد الدين صالح ص١٢٢، دار الصفا، الطبعة الثانية ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٤.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٠٤، ٣٠٥. والشيخ الجسر بمذهبه في الأسباب وعلاقتها بمسبباتها يريد أن يثبت طلاقة القدرة الإلهية وشمولها لكل شيء، لكن الحق أن الأسباب لا تؤثر في مسبباتها بذاتها كما يدعي النشوئيون، وإنما تؤثر في مسبباتها بما أودع الله تعالى فيها من قوة التأثير.

- إن رب العزة والجلال خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، كما أن الله تعالى كرمه في أصله حيث جعله نسلا لنبي من أنبياء الله تعالى.
- إن الله تعالى كرمه في خلقه فجعله في أحسن صورة، وركبه أبدع تركيب وأجمل تصوير[١]، وهذه الكرامة التي اختص بها الإنسان حماية إلهية له تنطوي على احترام عقله وفكره وحريته وذريته، وهي الحرية الحقيقية الواعية المسئولة التي تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية وهي الحكمة من خلق الإنسان.

فالنظرة الإسلامية للتطور تسمو بالإنسانية وتعرج بها إلى الملأ الأعلى، أما النظرة النشوئية الداروينية فتنظر إلى الإنسان بعين عوراء تدفعه إلى إشباع الجانب الحيواني فقط ويرفضون تكريم الله تعالى لهم ويهبطون بالإنسان إلى درك الحيوان الأعجم بهذه الأفكار اللاإنسانية.

ثالثا: النشوء والارتقاء في الفكر الأوربي الحديث.

١– «ديدرو Diderot Denis»

ولد هذا الفيلسوف الفرنسي عام١٧١٣م وتوفي ١٧٨٤م وكان من أعظم الفلاسفة الماديين، نشر كتبًا تدرج فيها من المذهب الطبيعي القائل بوجود الله والمنكر للعناية الإلهية، إلى الأحادية المادية الزاعمة أن المادة حية بذاتها، وأن الأحياء تتطور ابتداء من خلية تحدثها المادة الحية بحيث تحدث الأعضاء الحاجات، وتحدث الحاجات الأعضاء، وهو ينقل هذه النظرية القديمة نقلًا، ولا يدعمها بحجج علمية جديدة.[٢]

٢– مذهب «لامارك Lamarck»[٣]

لقد كان للفيلسوف الفرنسي «لامارك» الأثر الكبير على مذهب «داروين» فصرح هذا الرجل أن الحياة من خلق الله تعالى، وذهب إلى أن أنواع الكائنات يتحول بعضها إلى بعض بقانون التطور، وأنه لا صحة للاعتقاد السائد بأن تلك الأنواع قد خلقت متمايزة من المبدأ بأن خلقت خلقا مستقلا مباشرا، فسلم بالتولد الذاتي لكن لا بمعنى أن المادة تتجه بذاتها إلى الحياة، بل بمعنى أن غازات لطيفة كالحرارة والكهرباء قد تنقل غير الحي إلى الحي بكيفية متقطعة وفي نطاق ضيق، فالحياة في الأصل من خلق الله؛ فقد أوجد الله تعالى أصولًا طبيعية أو نماذج ينتظم كل منها من عدد معين من الأعضاء المعينة مركبة تركيبًا معينًا.[٤]

وتقوم نظرية النشوء والارتقاء اللاماركية على المعطيات والأمور الآتية:–

١) قد ثبت أن في بعض الحيوانات التي تطورت وارتقت أعضاء أصبح لا عمل لها بعد هذا التطور، بينما هي في الحيوانات الدنيا ذات وظيفة هامة فدل ذلك على أن هذه الأعضاء لا تعمل إلا وقت أن يكون الحيوان في حالة خاصة، فيأكل من الأغذية ما تصلح هذه الأعضاء للعمل فيه، فإذا ما ترك ذلك الحيوان مسلكه وارتقى إلى ما فوقه أصبح ذلك العضو بإزاء الغذاء الجديد لا عمل له مطلقا، وذلك مثل الزائدة الدودية في الإنسان والقرد.[٥]

١.العقيدة الإسلامية د.سعد الدين صالح ص١٢٢.
٢.تاريخ الفلسفة الحديثة المؤلف: يوسف كرم ص١٩٠، مكتبة الدراسات الفلسفية، الطبعة الخامسة وراجع الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د.يحي هاشم حسن فرغل ص٢٣، ٢٤ دار المعارف ١٩٨٤م.
٣.هو جان باتيست مونيه لامارك ولد عام ١٧٤٤م وتوفي عام ١٨٢٩م عام طبيعيات، له نظام الحيوانات اللافقارية، وفلسفة علم الحيوان، وأبحاث على تنظيم الأنواع، راجع المعجم الفلسفي د.مصطفى حسيبة ص٥٣٦.
٤.تاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص٣٠٠ ومعجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ص٢٩٥، والعقيدة الإسلامية د.سعد الدين صالح ص١٠٣.
٥.راجع قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن للشيخ نديم الجسر ص١٨٥، طرابلس، لبنان.

٢) شاهد علماء النبات أن بعض النباتات تحتوي على جاذبية خاصة يجذب بعضها بعض الحشرات ثم يلتهمها فيتغذى بها، وهذا من دلائل الاستعداد للصعود للحيوانية.

٣) يوجد تشابه كبير بين الإنسان والنوع الراقي من الحيوانات في التكوين وفي محتويات الدماغ فيجمع كل الفصائل المهذبة من الحيوانات العمود الفقري العجيب الذي يحمل محركات الفكر من الجسم إلى الرأس.

٤) إن تتبع الحفريات الأثرية المتغلغلة في أعماق الماضي يضع تحت أبصارنا لتدرج الحيوان والنبات صورة واضحة لا سبيل إلى الشك فيها مطلقا إذ هو يرينا في وضوح أن صور الكائنات الحية كانت في مبدأ الأمر بسيطة ثم أخذت تسير في التركب والتعقد والغموض شيئا فشيئا بنظام دقيق حتى صارت إلى الحالة التي هي عليها الآن، وهذا يبرهن على التطور وانتقال الأنواع من غير شك، ولكن يجب أن نلاحظ أن هذا التطور ينشأ تحت تأثيرات خاصة، وفي ظروف خاصة، ومن هذا نجم اختلافه في أسلاك الأنواع، فبعضها يتقدم إلى الرقي بخطوات واسعة، والبعض الآخر يسير إليه ببطء خاضعا لظروفه المتنوعة.[١] فالتباين الموجود بين أنواع الكائنات عند «لامارك» لا يرجع إلى اختلاف أصولها؛ لأن الأنواع المنحطة توجد أولا ثم تتدرج في الرقي ويتولد بعضها من بعض ويتغير النوع إلى أنواع أخرى، والأنواع إلى أنواع، ويسير كل نوع في سلسلته التي هيأته الطبيعة للسير فيها، وكان الإنسان آخر حلقات إحدى هذه السلاسل وأرقاها، وقد ذهب إلى أن السبب في هذا التغيير والتطور الذي يطرأ على الكائنات يرجع إلى عدة أمور من أهمها:

أ– النمو المطرد الذي تفوز به الأعضاء بمقدار الحاجة التي يتطلبها الاستعمال.

يرى «لامارك» أن التمرينات العملية هي التي تخلق الأعضاء أو تدعوا الطبيعة إلى خلقها، ومعنى هذا أن وظيفة العضو توجد فيه فيحس الكائن بحاجة شديدة إلى عضو يملأ هذه الوظيفة ولا يزال في شوق إلى هذا العضو الذي تدعوه وظيفته إلى شغلها أثناء بقائها فارغة أو انشغالها بعضو آخر خلقته الطبيعة لوظيفة أخرى حتى يخلق هذا العضو المطلوب، وذلك مثل الأكل الذي وجد لدى الحيوان قبل أن توجد له يدان فأخذ يتناوله بفمه الذي لم يخلق لوظيفة التناول فشغله الحيوان بوظيفة أخرى غير التي خلق لها حتى وجدت اليدان فتسلمتا عملها الطبيعي وأراحتا منه الفم، فإذا وجد العضو الذي خلق خصيصا لتلك الوظيفة تسلمته قوتان هائلتان وأخذت تعملان على نموه وهما قوتان الوراثة والبيئة، وكذلك العضو الذي ينعدم استعماله لانعدام وظيفته تتسلمه هاتان القوتان حتى يبيداه، وذلك مثل الذيل الذي انقرض من الحيوانات الراقية؛ لأنه أصبح بلا وظيفة.[٢]

ب– قانون الوراثة: وبه تنتقل الصفات التي يتم بها ذلك التعديل من الأصل إلى فرعه فيستمر التحول حتى يتغير النوع إلى نوع آخر.

ت– قانون البيئة: بمعنى أن الكائن قد تلائمه بيئته التي وجد فيها فيعدل نفسه وفق الظروف حتى يستطيع

١.راجع شرح بخنر على مذهب داروين ص٩٣ ضمن كتاب فلسفة النشوء والارتقاء د.شبلي الشميل، دار مارون عبود، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، والفلسفة العامة وتاريخها د.محمد غلاب ص١٨٨، ١٨٩، وتاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص٣٠٠.

٢.راجع الفلسفة العامة د.محمد غلاب ص١٨٩، وراجع أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدسة د. موريس بوكاي ص٣٣، ٣٤ ترجمة فوزي شعبان، المكتبة العلمية.

البقاء في تلك البيئة وتنعدم الصلة بين الفرع وبين أجداده.[١]

فالتطور عند «لامارك» له أسبابه التي لا تخرج عن العادة والاستعمال والضرورة، ولقد بدأت الحياة من مادة هلامية تشكلت وتطورت على مر الأزمنة البعيدة إلى مراتب وفصائل من الكائنات معقدة التركيب، كما تحدث «لامارك» عن أسباب التطور فقد عزا بعضها إلى ضروب من التأثير أسندها إلى الأحوال الطبيعية في الحياة والبعض الآخر إلى تلاقح الصور الحالية ثم رد الكثير منها إلى استعمال الأعضاء وإغفالها وإلى تأثير العادة التي ينسب إليها جميع ما يرى في الطبيعة من ضروب التناسب والتكافؤ الخلقي، فهو إذاً يرى أن أعضاء الجسم للكائن الحي تتغير بالاستعمال أو الإهمال أو بطارئ من طوارئ المرض والإصابة، كما يرى أن الصفات المكتسبة التي تتولد من ذلك تنتقل من الأصول إلى الفروع بالوراثة ولا تزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل نوع منها بنوعه المستقل الذي لا يقبل التناسل مع غيره، وقد ضرب مثلا بالزرافة وافترض أنها لطول قوائمها كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا وتعودت أن تمد عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده وثبت على هذا الطول في أعقابها المتوالية.[٢] ولقد تعرضت نظرية «لامارك» في التطور للنقد الشديد فقد كان الرأي السائد عند العلماء أن هذه النظرية ترتكز على انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة وبما أن التجارب الجديدة أثبتت أن الصفات التي يكتسبها الفرد في أثناء حياته لا تتوارث؛ فإنهم رأوا أن هذه النظرية تستحق أن تتوارى في ظلام النسيان.[٣]

المبحث الثاني: معالم نظرية النشوء والارتقاء عند الفيلسوف الإنجليزي «داروين».

لقد وضع «تشارلز داروين Charles Robert Darwin»[٤] نظرية في تطور الأحياء أدت به إلى نظرية فلسفية في الطبيعة، وخصص كتابا برأسه تحدث فيه عن الإنسان وتطوره اشتمل على كثير من الآراء الخطيرة التي تناقض ما جاءت به الأديان، وتقوم فكرة التطور الداروينية على أن الكائنات الحية تسير في تطورها مرتقية من أدنى الأحياء إلى الأعلى فالأعلى، وأن الإنسان قد كان قمة تطورها، وبقاء بعض الأنواع وانقراض بعضها يرجع إلى ظاهرة الصراع من أجل البقاء، فالبقاء يكون للنوع المكافح الأفضل، وأما النوع الخامل الذي لا يكافح من أجل البقاء فإنه يضمر، ثمّ يضمحل، ثمّ ينقرض، والعضو الذي يهمل إذ لا تبقى له وظيفة عمل في النوع الواحد، يضمر شيئاً فشيئاً، حتى يضمحلّ ولا يبقى منه إلا أثر يدلُّ عليه، وقد لا يبقى له أي أثر، كانت هذه هي الداروينية في عالم الأحياء، ثُمّ عُمّمت حتى شملت الوجود المادي كله، من الغاز السديمي الأول حتى المجرات فالكواكب، فالمواد الصالحة لظهور الحياة فالنبات فالحيوانات فالنبات فالحيوان[٥]، ويمكن لنا أن نوضح هذه النظرية لهذا الفيلسوف الإنجليزي في التطور من خلال هذه المطالب.

١.الأخلاق النظرية للأستاذ أبو بكر ذكري ص١٠٣، ١٠٤.
٢.راجع شرح بخنر على مذهب داروين ص٨٩، والإنسان في القرآن الكريم د.صلاح عبد العليم ص١٦١.
٣.كبرى اليقينيات الكونية د.محمد البوطي ص٢٥٦ دار الفكر والإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د.يحي هاشم حسن ص٢٤ وراجع أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدسة د.موريس بوكاي ص٣٥.
٤.عالم طبيعيات إنجليزي، ولد عام ١٨٠٩م وتوفي عام ١٨٨٢م راجع المعجم الفلسفي د.مصطفى حسيبة ص٢١٦.
٥.تاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص٣٥١ ودراسات في فلسفة الأخلاق د.محمد عبد الستار نصار ص١٧٣، دار القلم، وكواشف زيوف لعبد الرحمن حَبَنَّكَة ٣١٧/١ دار القلم، دمشق ١٩٩٠م.

المطلب الأول: النواميس الأربعة التي أقام عليها داروين نظريته.

لقد أقام «تشارلز داروين» مذهبه في النشوء والارتقاء على عدة نواميس، وهي بمنزلة واسطة لتوجيه كيفية جريان الترقي والنشوء في عالم النبات والحيوان وهذه النواميس هي تنازع البقاء، والتباينات بين الأفراد أو تغير الأفراد، وإمكان انتقال الصفات بالوراثة، والانتخاب الطبيعي، وهذه النواميس الأربعة إذا وجدت وفعلت معا فإن التطور في الطبيعة لابد وأن يكون حتميا، وهذا تفصيل وبيان لهذه القوانين.

أولا: قانون تنازع البقاء

"Struggle Forexistence."

يرى الفيلسوف الإنجليزي «داروين» أن الأنواع تنازع بعضها في التسابق إلى أسباب المعيشة ويطرأ عليها كوارث خارجية فيهلك الضعيف بتغلب القوي أو بالكوارث ويبقى القوي، ويبلغ التنازع معظمه بين الأنواع الأقرب بعضها إلى بعض لاشتراكها في المتنازع عليه، ويقل كلما ابتعدت الأنواع عن بعض حتى يفقد، وكلما كانت الصورة قديمة كانت أضعف عن مقاومة خصومها الأحدث لاتخاذ الأحدث في التنازع صورا أنسب للتغييرات الحاصلة في أحوال الحياة تجعلها أقوى، وكل صورة غُلِبت لا تعود أبدا".[١] وهذا الناموس عام ومطرد عند «داروين» في كل الاعتبارات، ومن خلال هذا التنازع يتم الفوز للفرد الذي تؤهله صفاته للغلبة والبقاء، وهذه الصفات كثيرة ومختلفة بالنسبة للحيوانات والنباتات، فقد تكون الصفة المؤثرة للفوز والغلبة صفة القوة أو الشجاعة أو كبر الجثة أو صغرها أو السرعة أو الجمال أو الذكاء، أو الحيلة في دفع الشر وتدبير القوت، أو الصبر على الجوع والعطش، أو الجلد على تحمل المؤثرات أو غير ذلك، فإذا تم الفوز للأفراد الذين لهم شيء من هذه الصفات والخذل الأفراد الذين ليس لهم ما يؤهلهم للغلبة، كُتِب البقاء للصالحين للحياة، وحق الفناء على غير الصالحين.[٢]

ثانيا: قانون تكون التباينات بين الأفراد:

يؤكد «داروين» على أن كل فرع مع إرثه لصفات كانت في أصله لابد أن يباينه في صفات أخرى؛ إذ أن الأجسام الحية ميَّالة إلى التغير على أوجه مختلفة وإلى حد محدود، بمعنى أن الأنواع تنحرف عن الأصل الصادرة عنه ببعض الصفات في اللون أو الضعف أو القوة أو الطول والشكل أو الخصب أو التكاثر أو تكوين بعض الأعضاء، فلا تشبه الأبناء الآباء شبها تاما مطلقا، بل يوجد دائما اختلاف مهما كان قليلا، وعلى أساس هذه القاعدة يشبه الابن أبويه في الصفات الجوهرية وليس في كل الصفات – وإن كان الاختلاف جزئي غير محسوس – ويشتد هذا الاختلاف كلما كانت سلسلة التسلسل أطول، فهذا الميل في الأحياء إلى التغير نتيجته تكون التباينات التي تعتبر أصل الأنواع؛ إذ أنها حاصلة عن انحصار بعض الصفات في بعض الأفراد وانتقالها في النسل بالوراثة وثبوتها فيه مع الزمان الطويل، ولما كان هذا التباين جزئيا ولا يتناول الأمور الجوهرية فإنه يخفى على غير المحققين، ولكن بمرور الزمن والدهور الطويلة يظهر التباين، ويتكون النوع الجديد.[٣]

١.راجع أصل الأنواع لداروين ص١٠١ ترجمة إسماعيل مظهر، المطبعة المصرية، وشرح بخنر على مذهب داروين ص١٠٢، والرسالة الحميدية ص٣١٢.

٢.راجع قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٨٦، والفكر المادي د.محمود عتمان ص١١٦، ١١٧.

٣.راجع أصل الأنواع لداروين ص٣٥، وشرح بخنر على مذهب

ثالثا: قانون الوراثة "Heredity".

ومعناه مجموع العوامل التي بها يتم انتقال صفات الأصل إلى فرعه مثل وراثة الابن طول أبيه أو أمه ولون أحدهما وغير ذلك من الصفات الجسدية أو الأدبية كالأخلاق والعادات والميول وغير ذلك، وبمقتضى هذا القانون تنتقل الصفات المميزة للأنواع في النسل.[١] وهذا الناموس هو المتمم لناموس التباينات بين الأفراد؛ لأن التباينات التي سبق ذكرها تنتقل بالوراثة من الأصول إلى الفروع، وتكون في أول الأمر جزئية وعرضية ثم تصبح بمرور الأزمنة الطويلة جوهرية وتظهر في الأنواع.[٢]

رابعا: قانون الانتخاب الطبيعي "Selection Natural".

إذا كانت الحياة عند «داروين» صراع من أجل البقاء فإن الطبيعة تختار من بين الموجودات ما هو أصلح للبقاء وتترك غير الصالح ليفنى، ولقد دفع «داروين» إلى القول بذلك أنه عني بتجارب مربي الحيوان ورآهم يحصلون على أصناف جديدة للمزاوجة بين الأفراد الذين يلاحظون فيها تغيرات ضئيلة ملائمة، فقد رأى أن الأفراد الذين يكتسبون وظيفة أو عضوا ملائما لظروف حياتهم أقدر على الصراع من العاطلين عن تلك الوظيفة أو ذلك العضو، فيحسن الأولون نوعهم وينقرض الآخرون، وقرر أن هناك إذاً "انتخاب طبيعي" يشبه الانتخاب الصناعي إلا أنه يخلو من القصد والنظام، فلا يدل على علة التغير، بل على أثره ونتيجته، ثم قد أن القرابة بين الأنواع المندثرة والأنواع الباقية تفسر بأن هذه صور عليا من تلك.[٣] فالانتخاب الطبيعي يحتفظ بما له فائدة في بقاء الأحياء على اعتبار أنه إذا احتفظ الانتخاب بصفات تضر بالنوع لبادت الأنواع ولم تستطع البقاء، والبقاء على الصفات النافعة للأنواع وإبادة الضارة بها هو ما أطلق عليه «داروين» الانتخاب الطبيعي، ويقرر «داروين» أن الانتخاب الطبيعي بالمعنى الذي حدده ممكن، وذلك أن الإنسان يستطيع إحداث بعض الصفات في الكائنات وتثبيتها بالانتخاب الصناعي، بل أحدثها فعلا، ولكن هناك فرق بين عمل الإنسان وعمل الطبيعة، فالإنسان ينتخب بعض الصفات الظاهرة التي تفيده هو ذاتيا ولذلك لا يحتاج إلى زمن طويل ولكن الطبيعة تنتخب الصفات الغير ظاهرة التي تساعد الكائن الحي على الاحتفاظ بالبقاء، فالطبيعة ليست كالإنسان تختار لمصلحتها أو منفعتها، ولكنها تختار من الصفات تلك التي تفيد الكائن الحي ذاته، وعلى هذا النحو فإن الطبيعة تحتاج في عملها إلى زمن طويل جدا لإتمام مهمتها، وإذا كان الإنسان يستطيع الانتخاب صناعيا فإن الطبيعة تستطيعه بلباقة أكثر وإتقان أكبر.[٤] فناموس الانتخاب الطبيعي هو الأساس الذي ترتكز عليه نظرية النشوء والارتقاء بأكملها في النتيجة، فقانون الوراثة كما ينقل التباينات ينقل أيضا جميع الصفات التي يحملها الأصل إلى الفرع، مادية كانت أو معنوية، أصلية أو مكتسبة، وهذه الصفات منها النافع كالقوة والصحة والذكاء، ومنها الضار كالأمراض والعاهات والشذوذ، أما الضارة فإما أن تتلاشى بتغلب النافعة عليها، وإما أن تتغلب فتؤدي إلى ملاشاة صاحبها بذاته أو بنسله، وأما النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازا وفائزا في معركة تنازع

داروين ١/١٠٥ والرسالة الحميدية للشيخ الجسر ص٣١٢، والإنسان في القرآن الكريم د.صلاح عبد العليم ص١٦٦، وقصة الإيمان ص١٨٦.

١.راجع شرح بخنر على مذهب داروين ١/١٢٠، والرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣١٢.

٢.قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٨٦.

٣.أصل الأنواع ص١٣٤ وشرح بخنر على مذهب داروين ص١١٠، والرسالة الحميدية ص٣١٢ وتاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص٣٥٢.

٤.الفكر المادي الحديث د.محمود عتمان ص١١٩، ١٢٠.

البقاء، ثم تتوارث الفروع هذه الصفات النافعة جيلا بعد جيل، وبعد مرور آلاف الأجيال يبلغ الامتياز حدا يجعل من الفرد الممتاز نوعا جديدا، وهذا هو قانون الانتخاب الطبيعي الذي يراه داروين سببا لتكوين الأنواع الحية الموجودة اليوم على سطح الأرض.[١]

هذه هي أهم قوانين التطور عند« داروين» التي بها يترقى الكائن بعد أن يوجد ويتعرض لعوامل الفناء وتنازع البقاء ويكافح في سبيل الحياة ويعدل نفسه مع بيئته حسب الظروف، فإذا حاز الصلاحية للبقاء استمر وجوده وورث صفاته التي حصل عليها لنسله من بعده، وبهذه الصفات يترقى الخلف ويستفيد هو أيضا ما يضمه إلى هذا الميراث فيتغير على طول الزمان خلقا آخرا يحسب الناظر إليه أنه لا يمت إلى غيره من الأنواع بصله مع أنه ربما كان مع رقيه ذا رحم لأنواع أخرى أحط منه بدليل ما بينه وبين بعضها من شبه قريب في الخصائص والمميزات.[٢] وإذا كان «لامارك» يرى أن البيئة تستبقي الكائن الحي الذي يحمل الصفات الملائمة لها وأنها هي التي تشكل أعضاء الكائن الحي فإن «داروين» قد ادعى أن البيئة تنتخب الأصلح له والأوفق، وتأتي أهمية «لامارك» أيضا من ناحية أخرى فإن إصراره على أن عملية التطور لها هدف تعتبر خطوة فكرة واسعة، فالتطور الهادف هو ما يقول به بعض التطوريين المحدثين، ووجود هذا الهدف هو اعتراف بوجود قوة خلاقة عليا تسيِّر هذا الكون وما فيه من أحياء ومن ثم اتبعها التطوريون المؤمنون وأنكرها الماديون نكرانا شديدا.[٣]

والخلاصة إن الإنسان عند «داروين» يولد كما تنبت الشجرة ويشب مثلها ويشيخ حتى تتلف أعضاؤه فيجف كما يجف النبات ويحصده الموت، وعلى الجملة يناله كل ما ينال النبات والحيوان من حياة وموت وقوة وضعف إلى آخر ما هنالك من صلات واتفاقات، فيجب أن لا نفرق بين الإنسان وغيره من بقية الأنواع في أي أمر كان؛ لأنه لا يوجد فرق كبير بين أفراد الأنواع المختلفة وأفراد النوع الواحد، وإن تنازع البقاء والحرب من أجل الحياة والقوت اللذين يوجدان بين أفراد الأنواع المختلفة لا يفترقان عنهما عند أفراد النوع الواحد وهو الذي ينشأ منه الانتخاب الطبيعي، فالكائنات المشتملة على قوة وسرعة في الحركة ومناعة تمكنها من المقاومة تبقى وتقوى وتتطور إلى الأمام، والكائنات التي ينقصها شيء من هذا تهوى في حضيض الفناء، فإذا أضفنا كل هذا إلى أن الإنسان يمكن أن يتناسل مع بقية الحيوانات الأخرى وأيقنا بتلاقح كل هذه الأنواع، وجب أن نؤمن بأن أصل هذه الحيوانات واحد وأنها تطورت واختلفت بعضها عن بعض.[٤]

المطلب الثاني: العلوم الطبيعية التي اعتمد عليها «داروين» في النشوء والارتقاء.

لقد درس «داروين» ومن جاء بعده من الذين نّقحوا آراءه أنواع الأحياء ما كان منها حياً وقت الدراسة، وما جمعوه من الحفريات التي قاموا بها، وما شهدوه من دفائن القرون الأولى في الصخور والكهوف، وما جمعوه من مخلفات الأحياء في الرمال وبقايا السيول القديمة، وما استخرجوه من محفوظات الثلوج المتراكمة من أزمان قديمة، فانتهوا إلى حقائق وصفية بَنَوْا عليها تفسيرات احتمالية تخمينيّة واستنتج النشوئيون استنتاجاً فكرياً هو

١.راجع قصة الإيمان ص١٨٦، وأصل الأنواع لداروين ص٥٠، والفكر المادي ص١١٩.
٢.الأخلاق النظرية أبو بكر ذكري ص١٠٥.
٣.أصل الإنسان د.محمد غلاب ص٤٥ وتاريخ الفلسفة الحديثة الأستاذ يوسف كرم ص٣٥٢، ٣٥٣.
٤.الفلسفة العامة د.محمد غلاب ص١٩١، وتاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص٣٥٣.

أن الكائنات الحية تطوّرت تطوراً ذاتياً تصاعدياً من أدنى الكائنات الحية حتى الإنسان الذي هو أعلاها كمالاً، وكانت "الأميبا" هي أدنى الكائنات الحية في التصور، ثمّ جاء التصحيح إلى "الباكتيريا" التي هي أدنى من الأميبا بعد اكتشافها، ثمّ جاء التصحيح إلى "الفيروس" الذي هو أدنى من الباكتيريا بعد اكتشافه، فالفيروسات في نظرهم الآن تتوسط الحدّ الفاصل بين الحي وغير الحي[١]، وها هي العلوم التي اعتمد النشوئيون عليها وكيفية استدلالهم بها.

أولا: دليل علم التشريح "Anatomy":

يدعي التطوريون أن الإنسان من الناحية الفسيولوجية حيوان في صفاته؛ لوجود التشابه بينهما في التركيب التشريحي، فقد وجد «داروين» أن أجزاء الهيكل العظمي للإنسان يمكن مقارنتها بمثيلاتها في الحيوانات الأخرى، فذراع الإنسان والرجل الأمامية من ذوات الأربع تتشابه عظامها في التركيب وإن اختلفت في الوظيفة، والتحورات في كل نوع من هذه الأنواع تلائم الوظيفة التي يؤديها كل عضو، كذلك الحال بالنسبة للجهاز العضلي أو العصبي أو الدوري أو الهضمي حتى تركيب المخ وأجزاؤه يمكن مقارنتها في الإنسان والحيوان، وليس هذا فحسب بل إن الإنسان يحمل ميكروبات الأمراض أو الطفيليات من الحيوان، فالسعار والكوليرا يصيبان الإنسان والحيوان على حد سواء، وتندمل الجروح في الإنسان والحيوان بطريقة واحدة حتى عملية النسل والولادة والفطام ورعاية الأطفال أساسها واحد في الإنسان والحيوان.[٢]

ثانيا: دليل علم الأجنة "Embryology":

من المعلوم أن الأطوار الجنينية المبكرة للحيوانات المختلفة تتشابه إلى حد كبير، فلا يستطيع الإنسان لأول وهلة التفريق بينهما، فجنين الإنسان يتفق مع جنين القرد اتفاقا تاما عند النشوئيين في البداية، ولذلك لا يمكن الجزم هذه المرحلة المبكرة بنوع الجنين ثم تظهر الصفات الخاصة المميزة في أخريات الانقلاب الجنيني، ولو كان مذهب الخلق المستقل صحيحا لما كان لهذا التشابه معنى.[٣]

ثالثا: علم الحفريات والاكتشافات الجيولوجية:

يرى النشوئيون أن الاكتشافات الجيولوجية تؤكد على أن الأسبق في طبقات الأرض هو أدنى النبات وأدنى الحيوان ثم بعده الأرقى فالأرقى حتى كان أرقى الجميع هو المتأخر في زمن وجوده ومكانه من طبقات الأرض العليا والأدنى قد تلاشى بعدما وجد الذي هو أرقى منه، فلو كان مذهب الخلق هو الصحيح لكان يوجد من كل نوع من الأرقى والأدنى في الأزمنة الجيولوجية المتقدمة والمتوسطة والمتأخرة، وكان يشاهد ذلك في الطبقات السفلى والوسطى والعليا من الأرض ولكن ذلك لم يكن، فلولا أن هذه الأنواع مترقية عن بعضها البعض، فأصل الموجودات هي الدنيا ثم أخذت تترقى حتى بلغت ما هي عليه الآن وكان الأرقى يلاشي الأدنى بتنازع البقاء لما كان الحال كما اكتشفنا.[٤] فالنشوئيون يؤكدون على أن العلوم الجيولوجية تبين أن الكائنات الحية لم توجد في زمن واحد بل تقدم بعضها على بعض، فبقايا الحفريات

١.راجع كواشف زيوف لعبد الرحمن حبنكة ٣٢٩/١.
٢.ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء لإسماعيل مظهر ص٢٨٥، والإنسان في القرآن الكريم ص١٧٠.
٣.راجع ملقى السبيل لإسماعيل مظهر ص٢٩٣ وكبرى اليقينيات الكونية للبوطي ص٢٥٩، والفكر المادي الحديث د.محمود عتمان ص١٢٩.
٤.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣١٢ والإسلام والاتجاهات العلمية د.يحي هاشم ص٣١.

تشكل سلسلة كاملة من الأشكال التي عاشت في الأزمنة السابقة من أدناها إلى أرقاها مما يدل على نمو تدريجي للكائنات يبدأ من كائنات بسيطة للغاية إلى كائنات أكثر تعقيدا إلى أن وصلت إلى الإنسان وفق النواميس الأربعة.[١]

رابعا: علم وظائف الأعضاء والتراكيب الأثرية:

يقرر الشيخ الجسر أن النشوئيين قد زعموا بأننا نشاهد الأعضاء الأثرية في بعض الحيوانات – لا في كلها ولا في غالبها – وهي آثار أعضاء توجد في الحيوان كآثار أصابع مثلا غير كاملة بل الذي يظهر منها مبدأ تكونها، فلو كان كل نوع مخلوقا مستقلا كما هو مذهب الخلق لما كان لهذه الآثار فائدة؛ لأن مذهب الخلق يقتضي أن يكون في كل نوع أعضاؤه اللازمة له ذات الفائدة لا أقل ولا أكثر، وهذه الأعضاء الأثرية لا فائدة لها الآن فيظهر أنها آثار أعضاء في نوع قديم وقد كانت لازمة له ثم لما طرأ على هذا النوع تغيرات تقتضي استغناءه عنها أخذت تتلاشى حتى لم يبق الآن إلا أثرها، أو أن هذا النوع كان خاليا عن تلك الأعضاء فطرأت عليه تغيرات تؤهله لأن ينقلب إلى نوع آخر يحتاج إلى تلك الأعضاء التي ظهرت آثارها فابتدأت تظهر فيه الآثار.

والخلاصة إن تلك الآثار إما آثار أعضاء كانت قديمة وأخذت تتلاشى وإما مبادئ أعضاء سوف تكمل وعلى كل فقد ثبت صحة التغير للأنواع وانتقال نوع إلى نوع آخر، وذلك يدلنا على صحة النشوء والارتقاء[٢]، مثل الشعر الصوفي الذي يغطي جنين الإنسان في شهره السادس ثم يختفي بعد ذلك، والشعر الموجود على جسم الإنسان البالغ والزائدة الدودية، والقدرة على تحريك الأذن عند بعض الأشخاص، وهي صفة تحتفظ بها الحيوانات ولم يعد لها فائدة عند الإنسان، والعضلة التي تحرك الإذن تلاشت عند الإنسان ولكنها تظهر من آن لآخر عند بعض الناس، ولقد وجد «داروين» في عصره شخصا يستطيع تحريك أذنه إلى الأمام. ويعتقد «داروين» أن ظهور هذه العضلات وأمثالها في الإنسان يرجع إلى صفات فقدها الإنسان منذ القدم ومراحل قطعتها أسلافه خلال انقلاباتها النشوئية العديدة.[٣]

هذه هي أهم الأدلة التي تمسك بها «داروين» وأتباعه لبيان أن الكائنات الحية تتطور حسب العوامل الطبيعية وأنها مشتقة من أصل واحد جميعا، فأنكروا الخلق الدفعي المباشر الذي ذكرته الكتب المنزلة، وزعموا أن الإنسان لم يخلق خلقا مستقلا وإنما كانت نشأته من أصل حيواني وخصوصا القرد حسب القوانين التي ذكروها للتطور، للشبه العظيم بين الإنسان والقرد في أكثر الأعضاء وبعض الطباع، وقالوا إن للكثير من الحيوانات كل إحساسات الروح كالفرح والحزن والحقد والمودة، ولها شيء من التفكير، واستنتجوا أن لها عقولا كالإنسان، ولكن هؤلاء القائلين بنشوء الإنسان من القرد تحيروا في كيفية انتقال القرود من الحيوانية إلى الإنسانية نقلته الأخيرة، فقال بعضهم أنها حصلت فجأة، وقال آخرون أنها حصلت بالتدريج لأن النقلة الفجائية بعيدة جدا لما بين الإنسان والقرد في العقل من الفرق العظيم، وبحثوا عن الحلقة المفقودة في طبقات الأرض فلم يجدوا لها أثرا ولم يتمكنوا حتى اليوم من البت في تلك النقلة برأي قاطع أو راجح.[٤] وانطلاقا من هذه النظرية الإلحادية قام الماديون من أنصار نظرية التطور بحملة عنيفة على فكرة

١.راجع ملقى السبيل للأستاذ إسماعيل مظهر ص٢١٦.
٢.راجع ملقى السبيل لإسماعيل مظهر ص٢٨٩، والرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣١١.
٣.الإنسان في القرآن د.صلاح عبد العليم ص١٧٢، ١٧٣.
٤.راجع قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٩٠.

الخلق وعلى القائلين بها، ووصفها بالبدائية وتفضيل أي رأي علمي مهما كانت قيمته على أي فكرة دينية من الخلق، وكانت هذه سمة القرن التاسع عشر الميلادي على العموم.(١)

المبحث الثالث: موقف الشيخ الجسر من نظرية النشوء والارتقاء.

تمهيد

قبل عرض موقف الشيخ حسين الجسر من نظرية النشوء والارتقاء نريد أن نتعرف – باختصار – على الشيخ حسين الجسر، وعلى أهم مؤلفاته، فهو حسين بن محمد بن مصطفى الجْسْر الطرابلسي الحنفي، كان رجلا عالما بالفقه والأدب، من بيت علم، اشتغل بالصحافة، فأنشأ جريدة طرابلس، وله نظم، وآل الجسر أصلهم من مصر، ويرجح العلماء أن سلفهم نزح من دمياط حوالي سنة١١٧٠هـ، ولد الرجل بطرابلس الشام عام١٢٦١هـ الموافق ١٨٤٥م، وفي السنة التي ولد فيها حسين توفي والده فنشأ يتيماً، وفي العاشرة من عمره فقد والدته إلا أن تربيته لم تتأثر كثيراً بفقد والديه، فقد نشأ في رعاية عمه الذي سهر على تعليمه، وبين العاشرة والثامنة عشرة من عمره أتيح له أن يَدْرس على أيدي بعض المشايخ أمثال الشيخ أحمد عبد الجليل، وصهريه عبد القادر وعبد الرزاق الرافعيين والشيخ عرابي، ورحل الجسر بعد ذلك إلى مصر، فدخل الأزهر سنة١٢٧٩هـ على غرار كثير من أبناء مدينته، وقد مكث في أرجائه أربع سنوات ونصف السنة بشكل متواصل ودون انقطاع، وتلقّى عن شيوخ من أبرزهم الشيخ حسين المرصفي [١٨٨٩م] الذي أثّر فيه كثيراً، وكان المرصفي واحداً من المشايخ المنفتحين الذين آمنوا بضرورة الانفتاح وتحصيل العلوم الحديثة، وكان للشيخ حسين المرصفي تأثير بعيد على أفكار التلميذ الجسر الذي لازمه واستمع إلى دروسه، وذلك من خلال تدريسه لمقدمة ابن خلدون التي منحت حسيناً عناصر وأدوات لتحليل المجتمع، ومن خلال اهتمامه للدور الإصلاحي الذي يمكن أن تنهض به التربية في المجتمع، واستمر الشيخ الجسر بالقاهرة إلى ١٢٨٤هـ، وكان في نيته البقاء عشرين عاماً في الأزهر لولا رسالة وصلته من طرابلس تدعوه إلى العودة بسبب مرض عمه الشديد، وبعد عودته بقليل توفي عمه فاضطر حسين إلى أن يتحمل أعباء العائلة المعيشية والروحية، وعاد إلى طرابلس، فكان رجلها في عصره علما ووجاهة، وقد قام بتأسيس المدرسة الوطنية وأراد منها أن تكون مدرسة عصرية بإدخال العلوم الحديثة، فدرس فيها العلوم العربية والشرعية، والمنطق، والرياضيات، والفلسفة الطبيعية؛ لأنه رأى أن الأمة الإسلامية لا تصلح وترقى إلا بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الأوربية مع التربية الإسلامية الوطنية تجاه التربية الأجنبية في مدارس الدول الأوربية والأمريكية، وأمضى أغلب سنوات حياته في كتابة افتتاحيات الجريدة وفي المطالعة والتأليف والعبادة، وقد جمعت افتتاحياته في عشر مجلدات باسم رياض طرابلس، وقد توفي بطرابلس الشام في رجب عام١٣٢٧هـ الموافق١٩٠٩م(٢)، ومن أهم مصنفاته:

١–الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة

١.راجع الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه د.محمود عتمان ص١٨٧.

٢.راجع الشيخ حسين الجسر، حياته وفكره، د.خالد زيادة سلسلة أعلام طرابلس، الطبعة الأولى، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر، ١٩٨٢م، وإيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، للبغدادي ٥٣٦/٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

الشريعة المحمدية، وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٨٨٨م ثم ظهرت طبعة ثانية سنة ١٩٣٣م، ويبدو أن نسخة منه وصلت إلى الشيخ جمال الدين الأفغاني، فقدّرها ولقّب صاحبَها بأشعري زمانه، كما اتصل خبر هذه الرسالة بالسلطان عبد الحميد الثاني الذي كذلك قدّر صاحبها تقديراً خاصاً، وأصبحت تُلقى دروساً في دور العلم.

٢-الحصون الحميدية في المحافظة على العقائد الإسلامية.

٣-مناقب الشيخ محمد الجسر.

٤-نزهة الفكر في ترجمة أبيه.

٥-إشارات الطاعة في حكم صلاة الجماعة.

٦-رياض طرابلس الشام عشرة أجزاء.

٧-له مقالات نشرها في جريدة طرابلس.

٨-والكواكب الدرية في الفنون الأدبية.

٩-العلوم الحكمية في نظر الشريعة الإسلامية.

١٠-البدر التمام في مولد سيد الأنام.[١]

المطلب الأول: مذهب الشيخ حسين الجسر في النشوء والارتقاء.

يرى الشيخ الجسر أن مذهب داروين عند ثبوته لا يتعارض مع أحكام القرآن ولا مع الإيمان بوجود الخالق العظيم تعارضا قطعيا كما يظن البعض؛ لأنه يرى أن الأمر المهم الضروري هو أن نعتقد بأن الله تعالى هو الخالق للعالم ولما فيه من أنواع، وبعد هذا الاعتقاد لا فرق بين القول بمذهب الخلق أو القول بمذهب النشوء والارتقاء من مادة أصلية خلقها الله تعالى ثم كوَّن منها الأنواع وفرَّعها بطريق النشوء والارتقاء وفق نواميس وضعها الله في هذا الكون.[٢] ولكن لابد من التنبيه على أن الشيخ الجسر يقرر أن مذهب النشوء والارتقاء الذي يقول به داروين وأتباعه لا يزال مذهبا مختلفا في صحته، ولم تقم الدلائل القاطعة التي من شأنها أن تحملنا على تأويل ظواهر النصوص المنزلة، وأنه متى قامت الدلائل القاطعة على صحة هذا المذهب جاز القول به، ووجب تأويل النصوص والتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل القاطع.ولبيان وتفصيل ما ذهب إليه الجسر لابد من ذكر المقدمات التي بنى عليها الرجل مذهبه في تفسير النصوص المتعلقة بخلق العالم وخلق الإنسان وحكم التعارض بين النصوص الشرعية وقضايا العلم اليقينية، وكيفية التوفيق بينهما، ومعرفة كيفية تطبيق هذه المقدمات على قضية الخلق للعالم وللإنسان.

أولا: المقدمات التي بنى عليها الجسر مذهبه في النشوء والارتقاء.

المقدمة الأولى:

يقرر الشيخ الجسر أن النصوص التي يعتمد عليها في الاعتقاد والأعمال والأحكام في الشريعة الإسلامية، تنقسم إلى قسمين هما متواتر ومشهور، فالمتواتر ما ثبت قطعيا وروده لما توفر فيه من الأسباب الموجبة للعلم اليقيني، والمشهور: ما ثبت وروده ثبوتا قريبا من القطعي لما توفر فيه من الأسباب الموجبة لطمأنينة القلب، وهي فوق الظن ودون اليقين، ثم إن كلا من المتواتر والمشهور إما أن يدل على معنى لا يحتمل الدلالة على سواه، فلا

١.راجع معجم المؤلفين، لعمر بن رضا كحالة ٤/٥٨، والأعلام لخير الدين الزركلي ٢/٣٥٨.

٢.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٨٣، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢٠٨، والتفسير القرآني للقرآن. عبد الكريم الخطيب ١/٦٥ دار الفكر العربي – القاهرة.

يقبل الصرف ولا التأويل إلى معنى آخر، وهو ما يسميه الجسر متعين المعنى، وهذا القسم لا يوجد منه في الشريعة المحمدية ما يناقض الدليل العقلي القاطع مطلقا.[١] وإما أن يدل كل من المتواتر والمشهور على معنى ظاهر متبادر منه، ويكون محتمل الدلالة على معنى آخر وإن كان بعيدا وهو ما يسميه الجسر بظاهر المعنى، وهذا القسم قد يوجد منه في الشريعة المحمدية ما يناقض معناه الظاهر الدليل العقلي القاطع، ثم إن حكم النص المتعين المعنى إنه إن كان متواتراً أو مشهوراً يجب التصديق بمعناه المعين ولا يجوز تأويله وصرفه إلى معنى آخر إذ هو لا يحتمل التأويل ولا يناقض شيء منه الدليل العقلي القاطع حتى يحتاج لتأويله، وأما حكم النص الظاهر المعنى فهو أنه إن كان متواتراً أو مشهوراً يجب التصديق بمعناه المتبادر منه فحينئذ يُؤول ويصرف إلى معنى غير معناه المتبادر بحيث يصح التوفيق بينه وبين ما دل عليه الدليل العقلي القاطع، وإنما جاز حينئذ تأويل النص الظاهر المعنى لأن الجمود على اعتقاد المعنى المتبادر منه ورفض ما يدل عليه الدليل العقلي القاطع يقتضي هدم الأصل وهو العقل الذي ثبتت به رسالة الرسول المتكلم بتلك النصوص الشرعية إذ لولا العقل لما وصلنا إلى الاستدلال على صدق دعواه الرسالة فإذا هدم الأصل هدم الفرع لا محالة، فرفض الدلائل العقلية رجوع على الدلائل النقلية بالنقض، وهكذا الحكم في كل نص ظاهر المعنى ناقضه الدليل العقلي القاطع.

وأما إذا كان الدليل الذي قام على ما يناقض ظاهر المعنى دليلا غير قطعي فلا يسوغ تأويل النص وصرفه إلى معنى آخر، ومن المعلوم أن الدليل القاطع هو الذي يدل على مدلوله دلالة يقينية لا تحتمل النقيض، وأما الدليل العقلي الظني غير القاطع فهو الذي يدل على مدلوله دلالة راجحة تحتمل النقيض، ولو احتمالا بعيدا فبهذا الاحتمال ينزل عن درجة اليقين ولا يجوز عنده تأويل المعنى الظاهر ألبتة.[٢] وقد يوجد في الشريعة المحمدية نص لا تتوفر له الشروط التي يبلغ بها درجة المتواتر أو المشهور فلا يكون ثبوت وروده يقينا، ويسمى بالآحاد وهو ينقسم أيضا إلى متعين المعنى وظاهر المعنى، وحكمه في الشريعة الإسلامية أنه يعتمد عليه في الأحكام الشرعية العملية إذ يكفي في حقها الظن ولا يعتمد عليه استقلالا في المعتقدات الإسلامية حيث إن ثبوت وروده ظني لا يقيني فلا يكفر منكر وروده أو معناه، كما هو منصوص عليه في كتب الأصول لكن الأحاد إذا نقله العدول وصارت معتمد الفقهاء في الفروع فلا يجوز إنكارها حيث لم يعارضها معارض عقلي قاطع لئلا يجر ذلك إلى إنكار المتواتر والمشهور، نعم إذا اكتنف الآحاد ما يقويه ويجعله مفيدا لليقين فيعتمد عليه حينئذ في المعتقدات كما يعتمد على المتواتر والمشهور فيها.[٣]

وخلاصة هذه المقدمة إن النص المتعين المعنى من المتواتر والمشهور لا يوجد في العقل ما يناقضه ولا يسوغ تأويله، والنص الظاهر المعنى منهما لا يجوز تأويله وصرفه عن معناه المتبادر منه إلا إذا قام في العقل دليل قاطع على ما يناقض معناه الظاهر وإنما جاز حينئذ تأويله؛

١.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٨٤ وراجع الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغاني ص١٠ تحقيق محمد حامد بدون طبع.

٢.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٨٣، ٢٨٤ وراجع قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢٠٩، ٢١٠، وشرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني ٥٢ دار المعارف النعمانية – باكستان الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٣.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٨٨، والحصون الحميدية للشيخ الجسر ص١٦٧.

لأن الجمود على اعتقاد المعنى المتبادر منه ورفض ما يدل عليه الدليل القاطع يقتضي هدم الأصل وهو العقل الذي ثبت به رسالة الرسول المتكلم بتلك النصوص الشرعية؛ إذ لولا العقل لما وصلنا إلى الاستدلال على صدقه في دعواه الرسالة، فإذا هدم الأصل هدم الفرع لا محالة، فرفض الدلائل العقلية رجوع على الدلائل النقلية بالنقض وهو خلاف المطلوب، وهذا حكم كل نص ظاهر المعنى ناقضه الدليل العقلي القاطع يرجع فيه إلى التأويل.[١]

ومن المعلوم أن ما ذكره الشيخ الجسر يتفق تماما مع ما قال به الأشاعرة من أن الدَّلَائِل القطعية الْعَقْلِيَّة إِذا قَامَت على ثُبُوت شَيْء ثمَّ وجدنَا أَدِلَّة نقلية يشْعر ظَاهرهَا بِخِلَاف ذَلِك فهناك لَا يَخْلُو الْحَال من أحد أُمُور أَرْبَعَة إِمَّا أَن يصدق مُقْتَضى الْعقل وَالنَّقْل فَيلْزم تَصْدِيق النقيضين وَهُوَ محَال وَإِمَّا أَن يبطل فَيلْزم تَكْذِيب النقيضين وَهُوَ محَال وَإِمَّا أَن يصدق الظَّوَاهِر النقلية ويكذب الظَّوَاهِر الْعَقْلِيَّة وَذَلِكَ بَاطِل لِأَنَّهُ لَا يمكننا أَن نَعْرِف صِحَة الظَّوَاهِر النقلية إِلَّا إِذا عرفنَا بالدلائل الْعَقْلِيَّة إِثْبَات الصَّانِع وَصِفَاته وَكَيْفِيَّة دلَالَة المعجزة على صدق الرَّسُول ﷺ وَظُهُور المعجزات على مُحَمَّد ﷺ وَلَو جَوَّزنَا الْقدح فِي الدَّلَائِل الْعَقْلِيَّة القطعية صَار الْعقل مُتَّهمًا غير مَقْبُول القَوْل وَلَو كَانَ كَذَلِك لخرج أَن يكون مَقْبُول القَوْل فِي هَذِه الْأُصُول وَإِذا لم نثبت هَذِه الْأُصُول خرجت الدَّلَائِل النقلية عَن كَونهَا مفيدة فَثَبت أَن الْقدح لتصحيح النَّقْل يُفْضِي إِلَى الْقدح فِي الْعقل وَالنَّقْل مَعًا وَإِنَّهُ بَاطِل وَلما بطلت الْأَقْسَام الْأَرْبَعَة لم يبْق إِلَّا أَن يقطع بِمُقْتَضى الدَّلَائِل الْعَقْلِيَّة القاطعة بِأَن هَذِه الدَّلَائِل النقلية إِمَّا أَن يُقَال إِنَّهَا غير صَحِيحَة أَو يُقَال إِنَّهَا صَحِيحَة إِلَّا أَن المرَاد مِنْهَا غير ظواهرها.[٢]

وأما المقدمة الثانية فهي أن الشريعة الإسلامية بل وسائر الشرائع إنما يقصد منها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى باعتقاد وجوده واتصافه بصفات الكمال وإلى كيفية عبادته وأداء شكره وإلى الأحكام التي توصلهم إلى انتظام المعاش وحسن المعاد، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم وما هي النواميس القائمة في السماوات أو في الأراضين وأمثال ذلك فليس شيء من نحو ذلك من مقاصد الشريعة، بل هذه المباحث هي معارف تتوصل الناس إليها بعقولهم فربما ينتفعون بها في دنياهم، والشرائع لا تلتفت إليها أولا وبالذات، ولا تهتم بتفاصيلها، وتكتفي بذكر شيء من أمرها على قدر ما يكون له دخل في مقاصدها الأصلية، فتذكر مثلا خلق السماوات والأرض وإبرازهما من العدم، وخلق أنواع المخلوقات، وكيفية تدبير الأكوان وما فيها من النظام على سبيل الإجمال ليكون ذكر ذلك دليلا عقليا للناس على وجود الله الخالق القادر العليم الحكيم.[٣]

ثانيا: حدوث العالم عند الشيخ الجسر.

يقرر الجسر أن الذي ورد في الشريعة الإسلامية من النصوص المتواترة أو المشهورة بشأن خلق العالم وتنوع الأنواع إنما هي نصوص لم يبيَّن فيها الله تعالى كيفية تفاصيل الخلق وكيفياته، فقد ورد أن الله تعالى ﴿خَلَقَ

١.الرسالة الحميدية ص٢٨٥ والحصون الحميدية ص١٦٧وراجع التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ٢٩٨/٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، والمواقف لعضد الدين الإيجي بشرح الجرجاني ٢٠٥/١ تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، لبنان، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢.أساس التقديس في علم الكلام، لفخر الدين الرازي ص١٣٠ مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٣.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٨٨، ٢٨٩، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٣١٠.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان:٥٩]، وورد أنه تعالى﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩]. ويوضح الجسر أن المفسرين المسلمين قد اختلفوا في تفسير هذه الأيام الستة من حيث كونها كأيامنا هذه أو غيرها، فأكثرهم على أنها كأيامنا[١]، وقال بعضهم أنها أيام من أيام الآخرة التي ورد عنها أن يومها كألف سنة من سنيننا[٢]، وقال بعضهم اليوم من تلك الأيام الستة يطلق على خمسين ألف سنة، ومع ذلك فالجميع متفقون على أن الله تعالى قادر على خلق السموات والأرض وما بينهما في أقل من لحظة لما قام لديهم من دلائل عظمة قدرته سبحانه، وإنما خلق ذلك في ستة أيام وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرًا عَلَى خَلْقِ السموات وَالْأَرْضِ فِي لَمْحَةٍ وَلَحْظَةٍ، فَخَلَقَهُنَّ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ تَعْلِيمًا لِخَلْقِهِ التَّثَبُّتَ وَالتَّأَنِّي فِي الْأُمُورِ.[٣] ويوضح الشيخ الجسر أن هناك نصوصا أيضا في القرآن العظيم تثبت أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله تعالى، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠]، وقد نقل الجسر عن الإمام اختلاف المفسرين فِي الْمُرَادِ مِنَ الرَّتْقِ وَالْفَتْقِ وأقوالهم في ذلك:

أَحَدُهَا: وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم أن المعنى كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض وهذا القول يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء لأنه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث هي وأصعد الأجزاء السماوية، قال كعب: خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها.

وَثَانِيهَا: وَهُوَ قَوْلُ أَبِي صَالِحٍ ومجاهد أن المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات وَكَذَلِكَ الْأَرَضُونَ.

وثالثها: وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين أن السموات والأرض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر، ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا.

ورابعها: قول أبي مسلم الأصفهاني: يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار: ﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى:١١] وكقوله: ﴿قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ:٦] فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق. أقول وتحقيقه أن العدم نفي محض، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة، بل كأنه أمر واحد متصل متشابه، فإذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض، فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود.

وَخَامِسُهَا: أَنَّ الليل سابق عَلَى النهار لقوله تَعَالَى:

١.راجع جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر الطبري ٢٢١/١٨، وبحر العلوم لأبي الليث السمرقندي ١٣٩/٢ والكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي، ٢٣٨/٤ والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم الزمخشري ٢٨٨/٣ ومدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات النسفي ٣٦٩/٣.

٢.راجع تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٩٢٥/٦ وغرائب التفسير وعجائب التأويل لأبي القاسم الكرماني ٤٠٦/١ واللباب في علوم الكتاب لعمر النعماني ١٤١/٩ وفتح القدير للشوكاني ٢٤٢/٢.

٣.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٩٠، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢١١.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ﴾ [يس:٣٧] وكانت السموات والأرض مُظْلِمَةً أولاً فَفَتَقَهُمَا اللَّه تَعَالَى بِإِظْهَارِ النَّهَارِ الْمُبْصِرِ، فإن قيل: فأي الأقاويل أليق بالظاهر؟ قلنا: الظاهر يقتضي أن السماء على ما هي عليه، والأرض على ما هي عليه كانتا رتقا، ولا يجوز كونهما كذلك إلا وهما موجودان، والرتق ضد الفتق فإذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة، وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحا، ويصير الوجه الأول أولى الوجوه ويتلوه الوجه الثاني. وهو أن كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بأن جعل كل واحد منهما سبعا، ويتلوه الثالث وهو أنهما كانا صلبين من غير فطور وفرج، ففتقهما لينزل المطر من السماء، ويظهر النبات على الأرض[١]، وقد اختار الشيخ حسين الجسر مع الإمام الرازي الوجه الأول وجعله أولى الوجوه بالقبول.

ويوضح الشيخ حسين الجسر أنه قد فهم بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] أن الأرض خلقت قبل السموات ولكنها غير مدحوة أي مبسوطة صالحة للسكنى، ثم استوى الله تعالى إلى السماء وهي دخان خلقه الله تعالى قبل ذلك، فسواها سبع سموات ثم دحى الأرض، ومن قال بهذا تأول النص الذي ظاهره يخالف ذلك، وفهم البعض الآخر أن السموات خلقت قبل الأرض وتأول ما ظاهره يخالف ذلك. يقول الإمام الرازي: " قَوْلُهُ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ﴾ مشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض، وقوله تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ [النَّازِعَاتِ:٣٠] مشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض، واختلف العلماء في هذه المسألة، والجواب المشهور: أن يقال إنه تعالى خلق الأرض في يومين أولا ثم خلق بعدها السماء، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض، وبهذا الطريق يزول التناقض"[٢]، وقد نَقَلَ الْوَاحِدِيُّ فِي «الْبَسِيطِ» عَنْ مُقَاتِلٍ أَنَّهُ قَالَ: خلق الله السموات قَبْلَ الْأَرْضِ وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ ثُمَّ كَانَ قَدِ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ، وَقَالَ لَهَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ فَأَضْمَرَ فِيهِ كَانَ".[٣]

ويقرر الجسر أن تفصيل خلق السموات والأرض وكيفيات تكوينها أو تكوين الشمس والكواكب والأرض من أن أصابها السديم ثم تكونت منه الشمس ثم انفصلت عنها الكواكب ومنها أرضنا على النواميس التي يقول الماديون بها أو على طريقة أخرى، فلم تنص مصادر الشريعة الإسلامية على شيء منه، ولم يرد في نصوصها ما يثبته أو ينفيه، بل إن نصوص الشريعة قد ذمت من يتعرض للبحث في ذلك، فقال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١].[٤]

وإذا نظرنا إلى التفاصيل التي ذكرها الماديون في خلق وتكون الشمس والسموات والأرض بعين الإنصاف ظهر أنها فروض وتخمينات، فيجوز أن يكون الله تعالى كوّنها

١.التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ١٣٨/٢٢، وراجع الحصون الحميدية للجسر ص١٦٦.
٢.التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ٥٤٦/٢٧ وإن كان الإمام قد رفض هذا الجواب المشهور من عدة وجوه.
٣.التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ٥٤٦/٢٧، وراجع تفسير مقاتل بن سليمان لأبي الحسن مقاتل بن سليمان ٧٣٧/٣، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤٢٣هـ وإن كان الإمام قد رفض هذا الجواب.
٤.راجع الرسالة الحميدية للشيخ الجسر ص٢٩٣ وكواشف زيوف لعبد الرحمن حَبَنَّكَة ٣٢٢/١.

على تلك الطريقة التي يقولون بها، ويجوز أن يكون الحال بخلاف ذلك، فما دامت تلك الفروض في درجة الظن فأتباع محمد ﷺ لا يجزمون بها في اعتقادهم ويكفيهم فيها ما قد ورد في شريعتهم على أحد الأوجه التي فهمها وقال بها علماؤهم، ولكن إذا ثبتت تلك الفروض بالدلائل القاطعة التي لا تحتمل النقيض ولا مجال للعقل في رفضها، فإن المسلمين يقولون بها مع اعتقادهم أن الله تعالى هو الذي أوجد الشمس وكونها وفصل منها الكواكب والأرض على الكيفية التي تذكرونها، والنواميس التي قال النشوئيون بها في ذلك التكوين.

وهذه النواميس التي قال بها النشوئيون تكون عند المسلمين أسبابا عادية لا تأثير لها في نفسها، والمؤثر الحقيقي هو الله تعالى، لكن جرت عادته في وضع تلك الأسباب وإيجاد مسبباتها عندها، لأن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف، وإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه يخلقها على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق الموت دون جز الرقبة وإدامة الحياة مع جز الرقبة وهلم جرا إلى جميع المقترنات.[1]

ومن الواضح أنه لا شيء من النصوص المتقدمة التي ذكرت في القرآن الكريم ينافي القول بهذا التكوين الذي يقول النشوئيون به، ويمكن عند ثبوت ما ذكروه بالأدلة العقلية القاطعة أن يقال: إن الله تعالى خلق أولا مادة العالم شيئا واحدا وقد سماه دخانا، وهو السديم المنتشر في الخلاء، ثم فتق السموات والأرض أي ميز مادة السماء عن المادة التي يريد أن يكون منها الشمس والكواكب والأرض، ثم كوَّن الشمس وفصل عنها الكواكب والأرض، لكن الأرض كانت بعد فصلها غير مدحوة وبصورة لا تصلح للسكنى، ثم قصد سبحانه إلى السماء وهي دخان فسواها سبع سموات، ثم دحى الأرض بعد ذلك، وكل ذلك أجراه الله تعالى على نواميس مخصوصة وهي أسباب عادية، وفي أزمنة طويلة هي التي سماها ستة أيام، وفي هذا التقرير يكون ما ذكره الماديون في تكون الشمس والكواكب والأرض منطبقا على ما ورد في نصوص كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ، ولكننا لا نلتزم القول بهذا الرأي ما لم تقم عندنا الأدلة القاطعة عليه، وما دامت الأدلة ظنية لم نكن نحن المسلمين مضطرين إلى الأخذ بها، واكتفينا بالقول أنه رأي محتمل الصحة.[2]

ويقرر الجسر أن المدار في اعتقاد المسلمين في شأن عوالم الأكوان أن يعلموا علما جازما أنها حادثة فلابد

١.راجع تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي ص٢٣٧، تحقيق د.سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة السابعة، وقد أشرنا سلفا إلى أن الأسباب لا تؤثر في مسبباتها بذاتها كما يذهب إلى ذلك النشوئيون، وإنما تؤثر في مسبباتها بما أودع الله تعالى فيها من قوة التأثير.

٢.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٩٥، وراجع قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢١٢.

لها من محدث هو الله تعالى الذي أوجدها وخلقها من العدم ونوعها إلى أنواعها التي نشاهدها الآن، وإن جميع ذلك لم يكن بتأثير طبيعة أو ناموس، والنواميس التي تشاهد في خلق وتكون بعض الكائنات إنما هي أسباب عادية وضعها الله تعالى لذلك وهو غني عنها، قادر على إحداث تلك الكائنات بدونها، وهذا القدر من العلم الجازم يكفينا نحن المسلمين في الاستدلال على وجوده سبحانه واتصافه بسائر الصفات الكمالية التي تدل عليها تلك الآثار من العلم والقدرة والإرادة وغير ذلك من الصفات.

ولا فرق عندنا بين أن نعتقد أن الله تعالى أوجد أنواع هذه العوالم بطريق الخلق أي إنه أوجد كل نوع منها ابتداء مستقلا عن غيره ليس مشتقا من سواه، سواء أوجده دفعة واحدة أو بتكوين متمهل بأن رقاه من مادة على تطورات عديدة حتى بلغ به ما هو عليه، فكل من التكوين الدفعي والتمهل من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى، وهو سبحانه فاعل مختار لا حجر عليه في سلوك أي طريق أراد، وبين أن يعتقدوا أن الله تعالى أوجد أنواع هذه العوالم بطريق النشوء، أي أنه أوجد المادة البسيطة ثم رقاها إلى عناصر ثم إلى معادن، ثم إلى أبسط جسم حي (البروتوبلازم) ثم إلى أدنى النبات أو الحيوان، ثم فرع من ذلك بقية الأنواع واشتق بعضها من بعض، واختار إبقاء البعض وإبادة البعض، وأجرى جميع ذلك على نواميس وضعها في المادة يتسبب عنها ذلك الارتقاء والنشوء والتنوع إلى أن بلغت تلك العوالم أنواعها التي هي عليها الآن، فكل من هذين الاعتقادين، أي اعتقاد طريق الخلق واعتقاد طريق النشوء في إيجاد العوالم لا ينافي الاعتقاد بوجود الله تعالى وأنه الخالق لهذه العوالم في كل حال.

وباختصار إن كلا من اعتقاد أن الله تعالى أوجد كل نوع من أنواع هذه العوالم مستقلا عن غيره ابتداء إما بدفعة واحدة وإما بتمهل، وتكون تلك الأجناس بعد ذلك منتزعة في العقول ومتصورة من تلك الأنواع وليس لها وجود إلا في الصور الذهنية، ومن اعتقاد أنه سبحانه أوجد في الخارج مادة الأجناس أولاً ولم يزل يرقيها وينوع منها الأنواع ويشتق الأنواع من بعضها حتى بلغت إلى ما عليه الآن، كل ذلك كاف في الاستدلال على وجود الله تعالى واتصافه بصفات الكمال.[1] ثم يقرر الشيخ الجسر أن النصوص المعتمدة في الاعتقاد التي وردت في الشريعة المحمدية في شأن خلق عوالم الأرض هي، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور:٤٥]. وقال ﷻ: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾[الشورى:١١]. وقال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾[الزخرف١٢]، وقال ﷻ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ [النجم:٤٥]. وقال سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد:٣]. ويرى الجسر أن هذه النصوص يحتمل أن تفسر بحد ذاتها على مذهب الخلق أو مذهب النشوء، والنصان الأولان منها يوافقان قول الماديين الحديث بأن المادة الحيوية من الماء، وأما بقية النصوص فالمعنى الظاهر منها يدل على أن الله تعالى أوجد الأنواع بطريق الخلق المستقل، ولكن مع ذلك

١.الرسالة الحميدية ص٢٩٨ والتفسير القرآني للقرآن. عبد الكريم الخطيب ١٢٩٣/١٢.

كله لم يرد نص يفيد أن كل نوع أوجده الله تعالى دفعه واحدة أو بتمهل إلا ما ورد في بعض النصوص الأحادية في حديث الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: «خَلَقَ اللهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ».(١)

ويوضح الإمام الجسر أن هذا النص لا يفيد إلا أن الحيوان تأخر عن الشجر في الخلق وهو لا يفيد أن كل نوع منهما كان إيجاده دفعيا عن طريق الخلق المستقل، أو بتمهل عن طريق النشوء والارتقاء.(٢) فبناءً على ما تقدم من تلك النصوص وبحسب القاعدة المتقدمة من أن الواجب في الشريعة المحمدية أن يعتقد أتباعها المعاني المتعينة أو المعاني الظاهرة من نصوصها المتواترة أو المشهورة ما لم يعارض المعاني الظاهرة دليل عقلي قاطع نعتقد أن الله تعالى خلق كل نوع مستقلا ابتداءً، ولم يخلقه بطريق النشوء وإن كان الله قادرا على كلتا الصورتين، وأما أن كل نوع خلقه دفعة واحدة أو بتمهل وترق بسبب نواميس وضعها الله فهذا سبيله عندنا التوقف، إذ لم يأت في الشريعة ما يفيد القطع بأحد الأمرين، ولا يسوغ لنا أن نعدل عن اعتقاد الظاهر إلى خلافه من أمر النشوء واشتقاق بعض الأنواع من بعض، مادام لم يقم دليل قاطع يضطرنا إلى تأويل تلك النصوص، ومتى قامت الأدلة العقلية القاطعة على صحة مذهب النشوء وأصل الأنواع، كان علينا أن نؤول ظاهر تلك النصوص ونوفق بينها وبين ما قام عليه الدليل القاطع.(٣) ولكن إذا كان هذا هو رأي الشيخ حسين الجسر في تفسير النصوص المتعلقة بخلق العالم، فكيف فسر النصوص المتعلقة بخلق الإنسان، وهل قول الداروينيين والنشوئيين في خلق الإنسان يمكن التوفيق بينه وبين النصوص الشرعية التي جاءت بها شريعتنا المحمدية؟

ثالثا: مذهب الشيخ الجسر في خلق الإنسان:

الحق أن الشيخ حسين الجسر يقرر أنه قد ورد في نصوص الشريعة المحمدية التي عليها مدار الاعتقاد في خلق الإنسان: أن الله ﴿بَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة:٧، ٨]، وخلقه الله تعالى ﴿مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ [الصافات:١١] وبينت آيات القرآن أيضا أن الله تعالى خلق ﴿الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٦]، و﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]، وورد أنه تعالى ﴿خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور:٤٥]، وقد قال بعض المفسرين أن التراب والماء أصلان للإنسان أي أنه خلق منهما، فتارة تذكر النصوص هذا، وتارة تذكر ذلك، وورد أن الله تعالى خلق الإنسان بصورة ممتازة عن بقية العوالم حيث خلقه الله بيديه، فقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وورد أنه خلق البشر من نفس واحدة وخلق منها زوجها فقال جل شأنه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء:١].

١.الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، حديث رقم ٢٧٨٩، ٤/٢١٤٩.

٢.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٩٩.

٣.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٠٠ وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢١٥، ٢١٦.

فهذه النصوص تفيد ظواهرها أن الله خلق الإنسان نوعا مستقلا، لا بطريق النشوء والاشتقاق من نوع آخر، ولاسيما قوله تعالى:﴿وبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة:٧] وإن كان كلا الأمرين من الجائز العقلي الداخل تحت قدرة الله، نعم ليس في تلك النصوص صراحة ما يفيد أن الله خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام من تراب دفعة واحدة أو بتكوين متمهل على انفراده، فسبيل هذا عندنا التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين، وإن كان قد يظهر من بعض النصوص الأحادية أن تكون الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام كان بتمهل، ومرت عليه مدة من الزمان، ولكن ظواهر النصوص التي عليها مدار الاعتقاد تدل على الخلق المستقل، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم٢٠].

يقول الإمام الرازي: "قَوْلُهُ: إذا وَهِيَ لِلْمُفَاجَأَةِ يُقَالُ خَرَجْتُ فَإِذَا أَسَدٌ بِالْبَابِ وَهُوَ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ بِكُنْ فَكَانَ لَا أَنَّهُ صَارَ مَعْدِنًا ثُمَّ نَبَاتًا ثُمَّ حَيَوَانًا ثُمَّ إنْسَانًا، وَهَذَا إشَارَةٌ إلَى مَسْأَلَةٍ حُكْمِيَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْلُقُ أولا إنسانا فينبهه أنه يحيي حَيَوَانًا وَنَامِيًا وَغَيْرُ ذَلِكَ لَا أَنَّهُ خُلِقَ أَوَّلًا حَيَوَانًا، ثُمَّ يَجْعَلُهُ إنْسَانًا فَخَلْقُ الْأَنْوَاعِ هُوَ الْمُرَادُ الْأَوَّلُ، ثُمَّ تَكُونُ الْأَنْوَاعُ فِيهَا الْأَجْنَاسُ بِتِلْكَ الْإِرَادَةِ الْأُولَى، فَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الْمَرْتَبَةَ الْأَخِيرَةَ فِي الشَّيْءِ الْبَعِيدِ عَنْهَا غَايَةً مِنْ غَيْرِ انْتِقَالٍ مِنْ مَرْتَبَةٍ إلَى مَرْتَبَةٍ مِنَ الْمَرَاتِبِ".[1] يقول الشيخ الجسر تعليقا على كلام الإمام: "فهذا تصريح بأن ذلك النص يفيد أن الإنسان كان تكوينه بطريق الخلق مستقلا ابتداء لا بطريق النشوء كما يزعمون، وطريق الخلق هو الذي تعطيه بقية النصوص".[2]

ومن المعلوم أنه لا يجوز تأويل هذه النصوص وصرفها عن معناها الظاهر إلا إذا قام الدليل العقلي القاطع على مذهب النشوء، وعندما تقوم الدلائل العقلية القاطعة على وجود الإنسان وخلقه بطريق النشوء فعند ذلك يمكن تأويل هذه النصوص والتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل القاطع، ولا ينافي ذلك اعتقاد المسلمين في شيء ما دام الأصل عندهم أن الله تعالى هو خالق الإنسان في كل حال.[3] فنصوص الشريعة عند الجسر تؤكد على أن الله تعالى قد خلق الإنسان مستقلا، وتبعد كل البعد أن يكون أصل الإنسان المادة البسيطة ثم ترقى إلى العناصر ثم إلى المادة الحية وهي البرتوبلازم ثم إلى أدنى حيوان ثم ترقى حتى بلغ القرد ثم إلى القرد الإنسان ثم إلى الإنسان كما يدعي الماديون، فالقرآن الكريم يهمل بيان كل ذلك ويقتصر على قوله في المادة التي خلق منها آدم ﴿وبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ بل إن الجسر يوضح إن الإنسان لو كان مخلوقا بنشوء وارتقاء لكان الحكمة تقتضي أن يشرح الله تعالى تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه في تفصيل خلق ذرية الإنسان، فإن الله تعالى فصَّل ذلك حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧] فسكوت النصوص القرآنية عن بيان النشوء واشتقاق الإنسان من نوع سواه واقتصارها

١.التفسير الكبير للفخر الرازي ٨٩/٢٥.
٢.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٠٤، والحصون الحميدية للجسر ص١٩١.
٣.راجع الرسالة الحميدية ص٣٠٤، ٣٠٥ وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢١٥.

على ما تقدم من البيان ظاهر في أن الإنسان خلق نوعا مستقلا وليس مشتقا وإن كان كلا الأمرين من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف القدرة الإلهية.

والخلاصة: إن الجسر يؤكد على أن الإنسان الأول خلق مستقلا لا بطريق النشوء وذلك لما يلي:

١-ظواهر النصوص القرآنية التي تؤكد على ذلك، ولا يجوز تأويل الظاهر إلا عند تعذر حمل المعنى عليه.

٢-لو كان مخلوقا بنشوء وارتقاء لكان الحكمة تقتضي أن يشرح الله تعالى تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه في تفصيل خلق ذريته.

٣-هناك بعض التفسيرات تشير إلى أن خلق آدم عليه السلام كان في جنة عدن أو في السماء الدنيا، وأن الله تعالى بعدما خلق الإنسان الأول خلق زوجته منه وأسكنهما الجنة دار الثواب التي أعدها الله لعباده المتقين وهي غير أرضنا[١] وهكذا يبرهن الجسر على أن دين الإسلام لا يتصادم ولا يمكن أن يتصادم مع العلم إذا تأيد هذا العلم بالدليل العقلي القاطع، ويصرح بأنه لا فرق في نظر الدين بين أن يكون إيجاد الله تعالى للعالم بطريق الخلق الدفعي، أو الخلق المتمهل، أو بطريق النشوء والارتقاء، فالخلق على كل حال تم بإرادة الله تعالى وقدرته وحكمته، وليس أحد المذهبين بأدل على الله تعالى من الآخر.[٢] فالشيخ الجسر يريد أن يثبت أن آيات الكتاب العزيز لا يمكن أن تتعارض مع معطيات العلم الحديث عند ثبوتها بالدليل العقلي القاطع، فمذهب النشوء والارتقاء عند ثبوته قطعيا لا يتناقض مع الدين الإسلامي في شيء.

أما العقل الإنساني فيرى الشيخ الجسر أنه من المغيبات التي لا سبيل إلى الوصول لكنهها وحقيقتها، وأن الشرع لم يأت بإيضاح لها، وعلى كل حال فلا يبعد أن يكون صحيحا قول الماديين إن العقل ظاهرة من ظواهر التفاعل لأجزاء المادة، ولكننا نقرر أن هذا التفاعل حصل بخلق الله تعالى الذي لا إله إلا هو، ولا رب سواه، وليس هذا التفاعل بمحض حركة المادة لذاتها.[٣] وكذلك قولهم إن عقل الإنسان لا يخالف عقول الحيوانات إلا بالكم ولا يخالفها في الذات والحقيقة، فإنه لا يتصادم مع نصوص الشريعة الإسلامية في الاعتقاد، إذ ليس فيها ما ينافي ذلك أو يؤيده، بل غاية ما ورد فيها أن الإنسان خص بالعقل عن سائر الحيوانات، وبه كلف الشرائع دونها، وأما كونه مغايرا لإدراكها فلم يرد فيه نص، فلا مانع أن يكون إدراك الحيوانات الذي أُعطيت إياه لتدبير معيشتها وعقل الإنسان من مقولة واحدة، هي عرض من الأعراض يحصل بخلق الله تعالى ولكنه قد زاد حتى بلغ في الإنسان درجة ممتازة عن سائر عقول الحيوانات تؤهله لاستنباط العلوم والتمييز بين الأخلاق الحميدة وغيرها، وهذه الدرجة هي التي تجعله أهلا للتكليف الشرعي وسميت عقلا لأنها تعقله عن ارتكاب خلاف الصواب.[٤]

وأما الروح فيقرر الجسر أنها موجودة، ولكن الرجل يعترف بعجز العقل عن إدراك حقيقتها، وهذا التوقف

١.راجع الرسالة الحميدية ص٣٠٦، وتفسير الفخر الرازي ٤٥١/٣.
٢.راجع الرسالة الحميدية للشيخ الجسر ص٣٠٨ وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢١٥.
٣.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٣٠.
٤.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٣٠، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢١٨.

من الجسر عن الخوض في حقيقة الروح والعقل التي عجز عن إدراكها كل الفلاسفة، برهان على سمو تفكيره، كما أن عدم الإنكار على القائلين إن الحياة ظاهرة من ظواهر تفاعل المادة بقدرة خالقها ﷻ، دليل على سعة عقله، وبعده عن الجمود وسمو نظره في فهم حقيقة الدين.(١)

ولو زعم النشوئيون أن المشابهة بين الإنسان والقرد تقتضي أن يكون قد اشتق هو وإياه من أصل واحد فإن الجسر يبين أن هذه الشبهة في غاية السقوط؛ لأن المشابهة الصورية لا توجب ذلك الأمر ولا تقتضيه، لأننا نرى الإنسان في أول ولادته في غاية الضعف والبله ثم يترقى بعد ذلك في القوة وذاك دليل ساطع على عظمة قدرة الخالق سبحانه في ترقية الإنسان العاجز إلى العالم المدقق أو الفيلسوف المحقق، وأما القرد فيولد مثل باقي الحيوانات على نوع من القوة التي تؤهله للحركة، وعنده من الإدراك مقدار ليس عند طفل الإنسان.(٢)

ولكن إذا كان الشيخ الجسر يقرر أن نظرية النشوء والارتقاء عند ثبوتها بالدليل القطعي اليقيني لا تتعارض مع الدين فكيف وُصِف الماديون بالإلحاد لما قالوا بها؟؟ الحق أن الماديين من النشوئيين كانوا ملحدين عندما قرروا أن الخلية الحية الأولى نشأت من الجماد بالتولد الذاتي، وبالمصادفة عند حصول توازن نسبي بين مقادير مخصوصة من العناصر المادية وليس بقدرة الله تعالى، والشيخ الجسر يقول إن نشأة الحياة من الجماد أمر ممكن وقد تكون الحياة ظاهرة من ظواهر المادة حدثت من الحركة ومن توازن نسبي بين مقادير مخصوصة من العناصر، ولكن كل ذلك حصل بخلق الله تعالى الخالق لكل شيء لا بالمصادفة العمياء كما يزعمون، أي أن الجسر يقول أن الله تعالى هو خالق مادة الكون الأصلية من العدم، وهو سبحانه خالق عناصرها المختلفة، وهو واهب العناصر طبائعها وهو الذي أعطى الذرات حركتها، وهو العليم بسر التوازن النسبي الذي يمكن أن تنشأ به الحياة، وهو الذي كوّن ذلك التناسب، وسبب عنه الحياة كعادته سبحانه في إنتاج المسببات عن الأسباب، وأما الماديون الملحدون فينكرون وجود الخالق أصلا، وينكرون وجود الإرادة في الخلق، ويزعمون أن العناصر تآلفت وتمازجت عن طريق المصادفة فأحدثت الحياة، فالفارق بينه وبين الماديين أن الرجل ينكر ويرفض رفضا قاطعا لا تردد فيه الخلق عن طريق المصادفة.(٣)

المطلب الثاني: موقف الجسر من النواميس التي قامت عليها نظرية النشوء والارتقاء.

من المعلوم سلفا أن النشوئيين قد أقاموا مذهبهم في النشوء والارتقاء والترقي على عدة نواميس هي تنازع البقاء، والتباينات، والوراثة، والانتخاب الطبيعي، وعندما يناقش الشيخ الجسر هذه القوانين ودلالتها على النشوء فإنه يناقشها على مرحلتين:

المرحلة الأولى: يقرر الشيخ الجسر أن هذه القوانين ظنية لاحظ لها من اليقين على النشوء والارتقاء، وبيان ذلك:

قانون تنازع البقاء:

يوضح الشيخ الجسر أنه لا مانع من حصول تنازع البقاء، ولا مانع أيضا من أن ينتج عن هذا الناموس أن بعض الأنواع تبقى وبعضها يهلك، لكن يقرر الجسر

١.راجع قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢١٨.
٢.الرسالة الحميدية ص٣٢٦ وقارن أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي ص٥٤ دار الرائد العربي – لبنان بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٣.راجع قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢١٧ وكواشف زيوف لعبد الرحمن حَبَنَّكَة ٣٢٣/١.

ويؤكد على أن المرجع في كل ذلك إلى الله تعالى الخالق، ونحن الآن لم نزل نشاهد هذا الناموس بين الخلق حتى في أصناف البشر، ولكنه يصح أن يحصل مع النشوء أو مع الخلق المستقل، فأي مانع من كون الأنواع وجدت مستقلة ومع ذلك ترث الفروع صفات الأصول، وتتنازع الأنواع للبقاء فيبقى القوي ويهلك الضعيف، مع أن كل نوع منها مستقل وليس ناشئا عن سواه من الأنواع.[١]

قانون التباينات بين الأفراد:

لقد ذكرنا سلفا أن هذا القانون يعني أن كل فرع مع إرثه صفات أصله لابد أن يباينه في صفات أخرى ليست فيه، ويقرر الجسر أن هذا الناموس وإن كان جائزا عقلا والتغير به جائز أيضا لكن كل ذلك داخل تحت تصرف القدرة الإلهية، ومن هنا يكون وقوع ذلك الناموس مظنون غير يقيني فحصول نتيجته وهي تغير الأنواع إلى بعضها يكون مظنونا، وأتباع محمد ﷺ لا يعبئون بهذا الناموس ولا يعتبرونه منتجا للنشوء فلا يضطرون إلى تأويل ظواهر نصوص شريعتهم الدالة على الخلق ووجود الأنواع مستقلة بل يؤمنون بأنها وجدت بطريق الخلق إلا إذا فرض قيام دليل يقيني قاطع يدل على خلافه، فحينئذ يجرون على قاعدتهم في التأويل للتوفيق بين الدليل العقلي والنقلي، ويبطل الجسر تمسك النشوئيين بهذا القانون على نظريتهم بعدة أمور:

١-أن هذا الناموس مشاهد في الحيوان والنبات، وقد جعله الله تعالى في المخلوقات لأجل التمايز؛ إذ لو كانت إفراد الأنواع على صورة واحدة في كل نوع لحصل من ذلك اشتباه بينهما ونشأ عنه اختلال في نظام العالم لا تدري نهايته، فكان الرجل لا يعلم ابنه ولا زوجته ولا هما يعلمانه ولا يعلم فرسه، وفي ذلك من فساد المعاملات وضياع الحقوق ما لا يخفى.

٢-ليس هذا الناموس خاصا في النبات والحيوان ولا في الفروع مع الأصول، بل عام في كل الموجودات، فلا ترى شيئا يشابه شيئا آخرا تمام المشابهة سواء كان فرعه أم لا حتى في صنائع البشر فلا ترى كتابا يشابه كتابا آخرا تمام المشابهة ولو حصل كامل التحري من صانعهما في إكمال المشابهة باختيار أوراقهما وطبعهما بمطبعة واحدة، ولا ترى قدحا يشبه قدحا، ولا حبة خردل تشابه حبة أخرى تمام المشابهة ولو تحرى الصانع كامل الأسباب المفضية إلى تمام المشابهة، بل لابد من تباين هناك ولو كان خفيا جدا يظهر عند تدقيق النظر، وما ذلك إلا لطف من الله تعالى لأجل التمايز.

٣-إن التباين في الموجودات هو ناموس وهبي من الخالق سبحانه، وليس بطبيعي كما تقولون وإلا فإن نظر فيه طبيعيا بين الفروع والأصول فقد كان من حق الفرع أن يأتي طبق أصله ويرث جميع صفاته ولا يباينه في شيء إلا عند عروض سبب موجب، ولكن مهما اتفق من توحد الأسباب للمشابهة لا تتم بين شيئين أصلا لا بين الفرع وأصله ولا بين الفرعين المتحدين في جميع أسباب التكون كمثل التوأمين اللذين يولدان في كيس واحد في مشيمة واحدة ثم يتحرى في تربيتهما توحيد الأسباب التكوينية على غاية الدقة فلابد من التباين بينهما، والتماس أسباب وهمية للتباين حينئذ كما نسمعه عن بعضكم ما هو إلا تعسف بارد وخارج عن دائرة الإنصاف".[٢]

١.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣١٨، ٣١٩ وراجع الإسلام وفلسفة العلم د.أحمد السيد رمضان ص٤٤٨، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، ١٩٩٩م.

٢.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣١٩، ٣٢٠.

٤-ما المانع من أن يكون هذا الناموس والذي اعتمدوا عليه في تغير النوع وتحوله إلى غيره على طول الزمان يكون محدودا بمقدار لا يخرج النوع إلى نوع آخر، وبذلك المقدار تتم فائدة التمايز بين الأفراد، فيمكن أن الله تعالى قد جعل فروع القرد الأول من النوع تباينه في صفات وفروع الفروع تباين أصولها أيضا، وهكذا إلى حد محدود من سلسلة النسب يجرى في ملايين من الأفراد والصور إلى درجة لا يخرج بها النوع إلى نوع آخر ثم يكر سبحانه على الفروع فيعطيها صور أجدادها السابقة، وهكذا حتى يتم الدور الثاني لاستيفاء الفروع صور الجدود، ثم يعيد ذلك العمل في الفروع التي تجيء بعد ذلك وهكذا حتى ينقضي هذا النوع أو ينقضي هذا العالم.[١]

وأما قانون الوراثة:

فهذا أمر مشاهد لا يمكن نكرانه بل هو جائز الحصول وممكن الوقوع بخلق الله تعالى، سواء كان ذلك لأسباب عادية أم لا، فأي مانع من كون الأنواع وجدت مستقلة ومع ذلك ترث الفروع صفات الأصول.[٢] والحق أن القول بوراثة الصفات المكتسبة واعتبارها عاملا أساسيا من عوامل التطور يكذبه الواقع، فمثلا: عادة الختان المنتشرة في البلاد الشرقية بين العبرانيين والعرب والمسلمين لم تعقب أثرا وراثيا في الأجنة والمواليد فلم يولد أحد مختونا إلا لإعجاز، ولم تكف الطبيعة عن منح الإنسان هذه القطعة التي تختتن، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تتحقق فيها صفات مكتسبة تستمر لأجيال طويلة، ومع ذلك لا تعقب أثرا وراثيا، مما يدل على أن الذي يورث إنما الصفات الفطرية دون المكتسبة".[٣] فقانون الوراثة الذي يعتمد عليه التطوريون والنشوئيون ليس شرعا لناموس التطور ولا تحليلا لأسبابه أو استقراء لجزئياته، وإنما هو ملاحظة للظواهر الخارجية فحسب، والنظريات العلمية الصحيحة لا يصح أن تعتمد على الملاحظة الظاهرة وحدها دون مستندات علمية ثابتة.[٤]

أما ناموس الانتخاب الطبيعي فهو عندهم بمنزلة نتيجة للنواميس الثلاثة المتقدمة فنتاجه عنها يكون مظنونا، وبعد تسليم حصوله يقال: يمكن أن يكون هذا مع وجود الأنواع بطريقة الخلق بأن يكون قد وجد أولا الأدنى منها ثم وجد الأرقى مستقلا غير ناشئ عن الأدنى، فنازع البقاء مع الأدنى وأباده، ثم وجد أرقى من الثاني مستقلا ونازعه وأباده وهلم جرا، إلى أن وصل الحال إلى الأنواع الموجودة الآن بدون أن يكون نوع ناشئا عن نوع فقد ظهر أن وجود الأحسن والأنسب الآن ليس لازما خاصا للنشوء، بل يمكن أن يكون مع الخلق واستقلال الأنواع، فحصوله لا يدل على النشوء.[٥]

ويؤكد العلم الحديث أن هناك أنواعا كثيرة من الحيوانات منذ آلاف السنين وهي على ما هي عليه لم تتعرض لتغيير ولا تبديل ومنها الطحالب الزرقاء، وهي كائنات حية تعيش منذ بليون سنة ومع ذلك فهي اليوم كما كانت منذ وجدت، وإذا كان أصحاب نظرية النشوء والارتقاء يستشهدون على الانتخاب الطبيعي بقصر ذنب الكلاب لأن جماعة واظبوا على قطع ذنبها قرونا طويلة مما جعل الطبيعة تكف عن هبته فإنا نسألهم عن رأيهم في قص الشعر والأظافر فكل ذلك عادة

١.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٢١.
٢.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣١٨.
٣.الإنسان في القرآن د.صلاح عبد العليم إبراهيم ص١٧٨.
٤.الفلسفة العامة د.محمد غلاب ص١٩٦.
٥.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٢٣.

للإنسان منذ الآف السنين، فلماذا لم تكف الطبيعة عن منحها للإنسان؟[١]

المرحلة الثانية من مناقشة النواميس الأربعة:

يقرر الشيخ الجسر أننا لو سلمنا جدلا بصحة هذه القوانين التي قامت عليها نظرية داروين فإنها لا يمكن أن تتعارض مع مذهب الخلق واستقلال الأنواع بأن يقال: يمكن أن الله تعالى خلق أولا الأنواع الدنيا، ثم خلق أنواعا أرقى منها مستقلة ليست ناشئة عنها ثم أباد الأولى بأسباب كونية، وتنازع البقاء مع الثانية، ثم وثم حتى بلغ الحال إلى هذه الأنواع الموجودة الآن، وهي أحسن وأنسب من جميع ما مر من الأنواع، فهذه الحال تضمنت ناموس التنازع وبقاء الأحسن والأنسب، ومع ذلك أيضا قد أجرى سبحانه إرث الفروع لصفات الأصول ومباينة الفروع للأصول في صفات أخرى، ولكن ذلك التباين إلى حد محدود وبحيث لا يحول النوع إلى نوع آخر وحكمته التمايز، وهذه الحال قد تضمن الناموسين الباقيين وهما الإرث والتباين المشاهدان مع أن الأنواع قد وجدت بالخلق والاستقلال عن بعضها واكتشافاتكم الجيولوجية لا تنافي شيئا من هذا التوجيه فهل عندكم دليل على امتناعه؟ كلا ثم كلا وبعد جميع ما تقدم لا يكون النشوء راجحا على الخلق في نظرية العقل بل هما على حد سواء فكل منها محتمل جائز داخل تحت تصرف القدرة الإلهية، وبهذا تبين أن النشوء ليس مظنونا أيضا في نظر العقل بل هو مشكوك ولكن أتباع محمد ﷺ يرجحون عليه القول بالخلق واستقلال الأنواع ويجزمون به لظواهر نصوص شريعتهم، وأنتم لا داعي لكم إلى ترجيح النشوء والجزم به بعدما أظهرت لكم منزلته من الثبوت، وإذ لم يثبت النشوء فلا ينبني عليه اشتقاق الإنسان والقرد من أصل واحد كما تزعمون".[٢]

المطلب الثالث: موقف الشيخ الجسر من أدلة النشوئيين على القول بالتطور.

الحق أن هذه النظرية التي قال بها «لامارك» و«هكسلي» و«داروين» والتي لا تفسح لفكرة الخلق التي جاء بها الدين مجالا لا تستحق المناقشة؛ لأنها قائمة على الظن والوهم والخيال، ولم تقم على الدليل اليقيني والبرهان العلمي، بل إن أصحابها قد لجأوا إلى الكذب والتضليل في إثباتها، «فأرنست هيكل Ernstheinrich Haeckel»[٣] عندما ادعى أن الكون مؤلف من المادة، ومن هذه المادة نشأ كل ما في العالم من أحياء وغير أحياء، وحركة العالم هي حركة تطور دائم يبتدئ من أبسط الذرات وينتهي إلى أرقى الكائنات، فهذه الكائنات كلها تتألف من عناصر واحدة لا فرق في ذلك بين الحي وغير الحي، لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في المواد غير العضوية، وعلى هذا الأساس يقول هيكل إن أبسط أنواع الحيوان نشأ من مادة غير حية بطريق التولد الذاتي، ولما أراد أن يثبت أن الأطوار الأولى للجنين تتشابه في كل من الإنسان والحيوان راح يعرض صورا لجنين القرد وجنين الإنسان لكي يثبت تطابقهما، لكن العلماء المدققين قد اكتشفوا أنه كان مزورا في الصور التي عرضها، ولذلك

١.الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغاني ص١٠ والعقيدة الإسلامية د.سعد الدين السيد صالح ص١١٠ والفلسفة العامة د.محمد غلاب ص١٩٦.

٢.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣٢٤.

٣.هو فيلسوف وعالم طبيعيات ألماني ولد ١٨٣٤م وتوفي ١٩١٩م درس التشريح وعلم الأجنة والفسيولوجيا المقارنة، من أعماله محاولات في علم النفس، وأدلة عن التحولية، ألغاز الكون، راجع معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ص٧٢٥.

عندما احتفلت أكاديمية برلين بعيدها المئوي دعت العلماء من شتى أنحاء الأرض وضربت عرض الحائط بدعوة مواطنها «هيكل» استخفافا به كعالم بعد أن اكتشفوا استخفافه بعقول الناس.[١]

ومهما يكن من أمر فإن الشيخ الجسر يرى أن هذه الشبه التي استند إليها النشوئيون لإثبات مدعاهم في التطور مجرد شبه واهية لا قيمة لها في مجال البحث العلمي، ولا يمكن أن يسلم عاقل بأي حال من الأحوال أنها تصل إلى مرتبة الدليل، لأنها أدلة ظنية مبناها على الفروض، ولا يعتمد عليها في الاعتقاد عند أتباع محمد ﷺ ولا تعارض ظواهر نصوص الشريعة الإسلامية مما يضطرنا إلى تأويلها؛ إذ لا يضطرنا إلى ذلك إلا معارضة اليقين، ومن المعلوم أن الدليل متى تطرق إليه الاحتمال ولو كان احتمالا بعيدا سقط به الاستدلال على اليقين، وهذا حكم لا ينكر عند كل العقلاء[٢]، ويتضح لنا ذلك من خلال مناقشة هذه الأدلة.

أ–دليل علم التشريح: يبين الجسر أن هذا التشابه بين تركيب الإنسان وتركيب بعض الحيوانات لا يثبت أن الإنسان قد تطور عن الحيوان وذلك لأن هذا التشابه يدل علي وجود الخالق سبحانه وتعالى الذي خلق فسوى وقدر فهدى، ولو سلمنا معهم جدلاً أن هناك ما يسمي بالعقل الحيواني أو الذكاء الحيواني وأن العقل الإنساني لا يختلف عن هذه العقول في ذاتها وإنما يخالفها بالكم فقط فإن هذا لا يصادم شيئاً من نصوص الشريعة المحمدية المعتمدة في الاعتقاد؛ إذ غاية ما تفيده تلك النصوص أن الإنسان قد خص بالعقل عن سائر الحيوانات وبه كلف الشرائع دونها، وأما كونه مغايرا لإدراكها في الذات والحقيقة أم لا فلم يرد في تلك النصوص ما هو تصريح بشيء منها[٣] والحق إن الإنسان هو الكائن الوحيد بين الأحياء الذي يتمتع بالقدرة على التفكير المنطقي وهو المخلوق الأوحد الذي يستطيع أن ينمي معلوماته؛ لأنه يفكر بطريقه منطقيه تجعله يتعدى حدود مجرد التفكير إلى الحكم علي الأشياء بالصواب أو الخطأ، وإلى التمييز بين الصدق والكذب، واستنتاج النتائج من المقدمات التي تلزم عنها، والاستفادة من أفكار السابقين إلي غير ذلك من العمليات الذهنية التي لا نجد لها نظيراً عند غيره من الحيوانات، وهو حين ينطق إنما يفهم ما ينطق وليس كالأنواع الأخرى التي تنطق بلا فهم[٤]، ويأتي علم التشريح ليثبت أن هناك فروق كبيرة وهائلة بين تركيب الإنسان وتركيب غيره من الحيوانات وخصوصا القرد، وتتمثل هذه الفروق في أشياء كثيرة فحجم الفراغ في جمجمة القرد من ٤٠٠ إلى ٥٠٠سم أما الإنسان فيصل في المتوسط إلى ٣٥٠سم، وكبر حجم المخ عند الإنسان عنه عند القرد وجبهة الإنسان عريضة بينما جبهة القرد ضيقة إلى غير ذلك فالتشابه بين أنواع الحيوان لا ينهض لأن يكون دليلا على دعواهم بل هو دليل على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى.[٥]

١.راجع قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٨٨ والعقيدة الإسلامية د.سعد الدين صالح ص١٠٦، وأسس الفلسفة د.توفيق الطويل ص١٢٠ وموقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين مصطفى صبري ٢/٢٨٣.
٢.الرسالة الحميدية للشيخ الجسر ص٣٠٥، ص٣١٣.
٣.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٥٩.
٤.المقدمة لابن خلدون ص٧٣٦ وقصة الصراع بين منطق اليونان ومنطق المسلمين د.سعد صالح ص١٩.
٥.راجع العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث د.سعد الدين السيد صالح ص١٠٨، والإنسان في القرآن للأستاذ عباس محمود العقاد ص٩٣ والإنسان في القرآن للعقاد ص١٥٤.

ب–مناقشة الدليل الثاني «دليل علم الأجنة» لقد ذكر النشوئيون أن تشابه الصور الجنينية بين الإنسان وبعض الحيوانات دليلا لهم على التطور؛ لأنهم يرون أن المراحل التي يمر بها الحنين أثناء تطوره وتكَوُّن أعضائه المختلفة تحكي قصة التطور التي يمر بها الجنين في عالم الحيوان، وهذا التشابه لا يصلح دليلا لمذهب التطور وذلك لما يلي:

١–إن الأبحاث العلمية قد أثبتت وجود اختلاف في الجينات بين الإنسان والحيوان، فقد كشف علماء الأجنة والإحياء أن كل جنس من أجناس الكائنات الحية يتكون من مجموعة خلايا، وأن كل خلية من خلايا جنس معين تحتفظ بعدد ثابت من الكروموسومات واكتشفوا أن كل خلية من خلايا الإنسان تتكون من ٤٦ كروموسوم فإن زاد العدد أو نقص تعرض الإنسان إلى خلل عقلي أو تعويق خلقي، وبفحص خلايا القرد وجد هؤلاء العلماء أن خلاياه تتكون من ٤٤ كروموسوم وهو عدد ثابت في خلايا القرد لا يزيد ولا ينقص، وهذه الكروموسومات أو الجينات هي التي تحدد النوع، وهو العامل الرئيسي فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان.[١]

٢–إن التشابه الذي يظهر في الأشكال الجنينية لا يعني إعادة الصور السالفة، بل هو مجرد نتيجة للشروط التي يخضع لها نمو الجنين، ثم إن التطابق بين تطور القرد وتطور النوع ليس أمرا واقعا في أغلب الأحيان، فالعضو الذي يفترض اكتسابه في أواخر تطور النوع يظهر في أغلب الأحيان في أوائل نمو الجنين، وهو حال تكوين الحويصلة البصرية لدى الفقريات.[٢]

والخلاصة: إن دليل الصور الجينية الذي اعتمد عليه داروين لا قيمة له بل هو دليل مكذوب ومزور؛ لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرز هذه الشبه، وماعدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألماني " أرنست هيكل" فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المائة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول[٣]، فهل يا ترى يمكن أن تبني حقائق العلم على الكذب والتزوير؟؟؟ وهل الأمانة العلمية تقتضي الافتراء على التاريخ الإنساني؟؟؟

ج – مناقشة دليل علم الحفريات والاكتشافات الجيولوجية إن ما استند إليه الدارونيون من علم الحفريات وادعاؤهم أن الإنسان القديم كان أقل رقيا من الإنسان المعاصر؛ لأن الحيوانات عندهم كانت قد تطورت من كائنات أقل رقيا منها، إذ كان الأسبق في طبقات الأرض هو أدنى النبات وأدنى الحيوان ثم بعده الأرقى فالأرقى حتى كان أرقى الجميع هو المتأخر في زمن وجوده ومكانه من طبقات الأرض، وأنه قد تلاشى الأدنى فالأدنى، فإن الشيخ الجسر يقرر أن ذلك لا يصلح ذلك دليلا على مذهب التطور؛ لأن دلالته بعد تسليمها على الترقي والنشوء ظنية، وذلك لما يلي:

١–إن هذه الاكتشافات الجيولوجية لا تتعارض مع مذهب الخلق، وذلك لأمرين:

- ما المانع من أن يكون أول ما خلق الله تعالى في

١.راجع الإنسان في القرآن الكريم د.صلاح عبد العليم ص١٨١.
٢.خلاصة الميتافيزياء د.محمد يعقوبي ١٧٧/٢ دار الكتاب الحديث ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م.
٣.الإنسان في القرآن الكريم د.صلاح عبد العليم ص١٨٢ وراجع المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي د.محمد سيد أحمد المسير ص٣٨٦.

طبقات الأرض أدنى النبات وأدنى الحيوان، ثم أوجد الله تعالى ما هو أرقى منها مستقلا كل نوع منه ليس ناشئا عن نوع من أنواع ذلك الأدنى، ثم أباد الأدنى لأسباب كونية من نحو أن الدور الزماني لم يبق مناسبا له وإنما يناسب ما وجد بعضه أو أن الأرقى تغلب عليه أو غير ذلك من الأسباب، ثم بعد دور آخر أوجد ما هو أرقى من الثاني مستقلا كل نوع منه أيضا غير ناشئ عما قبله،ثم أباد الثاني لأسباب أخرى كونية، ثم بعد دور آخر أوجد ما هو أرقى من الثالث مستقلا كل نوع منه أيضا، ثم أباد الثالث وهكذا الحال حتى وصل الدور إلى أنواع النبات والحيوان الموجودة الآن مستقلة أنواعها غير ناشئة عما قبلها وقد أباد ما قبلها بمثل تلك الأسباب فبقيت أحافيرها وآثارها في طبقات الأرض، وإذا كان هذا الاحتمال قائما فإن اليقين في استدلال النشوئيين فيما أظهرته الاكتشافات الجيولوجية، وبهذا الاحتمال لا تخالف تلك الاكتشافات مذهب الخلق المستقل.[١]

- إن الحلقة المفقودة التي تعبر عن الكائن البدائي الأكثر شبها بالقرد والذي يفترض أنه السلف المباشر للإنسان الذي انحدر منه لا تزال أمرا مجهولا، إذ لم يعثر أحد حتى الآن على بقايا هذا السلف المباشر للإنسان ولا على آثار مؤكدة للحيوان المقول بأن الإنسان والقرد الشبيه بالإنسان كلاهما انحدر منه.[٢]
- إن النشوئيين لما اعتمدوا على علم الحفريات قد أخذوا منه الظواهر التي تؤيد وجهة نظرهم وتركوا الاكتشافات العلمية التي تهدم نظريتهم في التطور؛ لأن هناك كثيرا من الكشوف لهياكل حيوانات راقية تعود إلى حقب قديمة ولكن لم يهتم بها دعاة التطور لأنها تناقض نظريتهم، فقد أعلن جوهانس ووكر عن اكتشاف قطعة فحم بها فك إنسان يرجع إلى عشرة ملايين سنة، وهي أقدم قطعة عن الإنسان في العالم وموجودة في متحف بال بسويسرا، وصرح بأنه لا يوجد دليل على أن الإنسان من سلالة القرود.

د. مناقشة دليل الأعضاء والتراكيب الأثرية والذي يعنون به أن بعض الأعضاء زائدة في الإنسان ولا فائدة منها مثل الشعر الموجود في جسم الإنسان البالغ، وهو دليل على التطور عندهم لأنها آثار لصفات فقدها الإنسان منذ زمن بعيد نتيجة التكيف مع الوضع الجديد، ويرى الجسر أن هذا الدليل لا قيمة له ولا نتيجة له إلا الظن وليس من اليقين في شيء لتطرق الاحتمال إليه، وذلك لما يلي:

١-إن هذه الأعضاء الأثرية لها الكثير من الفوائد وفيها العديد من الحكم التي قد تخفى على الإنسان، وعدم علم النشوئيين وإدراكهم لما فيها من الحكم لا يدل على عدم وجود هذه الحكم في ذاتها[٣]، لأن الله تعالى لم يخلق شَيئا فِي مَوضِع إِلَّا لأنه مُتَعَيّن لَهُ وَلَو تيامن عَنهُ أَو تياسر أَو تسفل أَو تعلى لَكَانَ نَاقِصا أَو بَاطِلا أَو قبيحا أَو خَارِجا عَن المتناسب[٤]، لأنه سبحانه هُوَ الَّذِي تنساق تدبيراته إِلَى غاياتها على

١.الرسالة الحميدية للشيخ الجسر ص٣١٦، ٣١٧.
٢.الإسلام والاتجاهات العلمية د.يحي هاشم حسن ص٤٥.
٣.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٣١٤، وراجع معالم أصول الدين للإمام الرازي ص٩٣ المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي – لبنان، والمطالب العالية من العلم الإلهي ٣/٢٩٠.
٤.المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى للغزالي ص٩٩ تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي الناشر: الجفان والجابي –قبرص الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

سنَن السداد من غير إِشَارَة مشير وتسديد مُسَدّد وإرشاد مرشد[١]، فكيف نقبل بعد ذلك إدعاء الداروينيين أن وجود الزائدة الدودية في الإنسان لا فائدة منها؟؟

٢-لو سلمنا للداروينيين جدلا من باب مجاراة الخصم أن وجود هذه الأعضاء الأثرية لا فائدة لها وأنها تدل على تغير النوع الذي هي فيه، لكن نقول أنها لم توجد إلا في بعض الأنواع ولم توجد في كلها بل ولا في غالبها، وعلى ذلك فما المانع من أن التغير قد يوجد في بعض الأنواع وهي التي وجدت فيها تلك الأعضاء فيتحول نوع إلى نوع آخر لأسباب وضعها الله تعالى لذلك، وأما باقي الأنواع التي لم توجد فيها تلك الأعضاء فقد خلقت مستقلة ولم يطرأ عليها ذلك التغير، فلم يثبت مذهب النشوء الذي قالوا بعمومه في كل الأنواع، مثلا يمكن أن يكون قد حصل تغير في نوع من الحيات التي وجدتم فيها الأعضاء الأثرية فكانت أولا ذات أرجل ثم لما استشعر الإنسان أو غيره من الحيوان بأذيتها تسلط عليها بالقتل فصارت تحذره وتسلك في أوكار الأرض وتهمل استعمال أرجلها لاستغنائها عنها، فعلى طول الزمان غيّر الله خلقها بذلك السبب العادي وأخذت تتلاشى أرجلها بخلق الله تعالى وينتقل ذلك التغير إلى فروعها ويورث ذلك التلاشي حتى بلغت إلى ما هي عليه الآن ولم يبق إلا آثار تلك الأرجل، وهكذا يقال في بقية ما شوهد في الأعضاء الأثرية، وأما بقية الأنواع وهي الأكثر فنقول أنها لم يحصل لها أدنى تغير، بل هي كما خلقت، فعلى هذا التقرير يكون حكم الداروينيين على جميع الأنواع بالتغير وباستنتاج النشوء منه حكما مبنيا على الظن الذي نتج معهم من الإستقراء الناقص الذي لا يفيد اليقين.[٢] فالحق أن النظرية الداروينية قد فشلت فشلا ذريعا في تقديم تفسير لسر الحياة؛ لأنها وإن كانت قد ادعت أن الحياة قد بدأت من خلال خلية واحدة إلا أنها قد لجأت إلى القول بالمصادفة فلم توضح من الذي خلق الحياة في هذه الخلية الأولى، ولم تفسر لنا كيف نشأت الحركة الأولى التي حدثت للمادة في حالتها الأولية الراكدة، وكيف ظهر الإنسان بتكوينه المشتمل على العقل وعلى الجهاز البدني المعقد[٣]؟؟

ومن المعلوم أن القول بالمصادفة خرافة يستنكرها العقل والوجدان لاستحالة حدوث المصنوعات ذات الغاية والحكمة يغير إرادة واعية وقصد هادف، كاستحالة حدوث العقل من غير فاعل، واستحالة صدور الأثر بدون مؤثر، ومتى تجلى القصد واتضحت الغاية في الموجود كان لابد له من قاصد مريد، واستحالت فيه المصادفة والاتفاق.[٤] والحق أن ادعاء المصادفة في نشأة الحياة قول يبرأ منه العلم، وتنفيه حقائق الكون، لأن النظر في الكون وفى سمائه وأرضه، وحيوانه ونباته، وبره وبحره، كفيل بدحض هذا الافتراء.[٥]

والخلاصة إن نظرية النشوء والارتقاء مردودة ولا يسلم بها عاقل وذلك لما يلي:-

١.المقصد الأسنى للإمام الغزالي ص١٤٨.
٢.الرسالة الحميدية للشيخ الجسر ص٣١٤، ٣١٥.
٣.راجع الإسلام والاتجاهات العلمية د.يحي هاشم ص٥٧.
٤.راجع الله يتجلى في عصر العلم، تأليف: نخبة من العلماء الأمريكيين ص١٥، ١٦ ودراسات في العقيدة الإسلامية أد.شوقي إبراهيم عبد الله ص١٥٠.
٥.راجع المجتمع المثالي د.محمد أحمد المسير ص٣٨٧.

١-إن هذه النظرية مخالفة لأبسط قواعد الفكر الضرورية، وتتناقض مع قوانين العقل والمنطق، وخصوصا مع قانون الذاتية الذي يؤكد على ثبات حقائق الأشياء، فالإنسان هو الإنسان كل شيء فيه ثابت جسمه وعقله، وقد يفترق إنسان عن آخر في العوارض الغير مشخصة ولكن الإنسان بما هو إنسان هو إنسان دائما[١]، وفي ظل هذا القانون تثبت مفاهيم القيم الأخلاقية فيكون لها حقيقتها الذاتية والتي لا تختلف من فرد لآخر، فالجميل هو الجميل والقبيح هو القبيح، وإذا كان الأمر كذلك فإن داروين وأتباعه من النشوئيين عندما ادعوا أنه ليس هناك شيء ثابت على وجه الأرض لا النبات ولا الحيوان ولا الإنسان يتعارض مع المنطق والعقل.[٢]

٢-إن نظرية التطوريين والنشوئيين تتعارض مع مبادئ المنهج العلمي التجريبي الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة، فهل لاحظ هذه النظرية أحد منهم أو جرَّبها في معمله؟ أنت خبير أن هذا ضرب من المستحيل؛ لأن عملية الارتقاء معقدة وهي تتعلق بماضٍ بعيد جداً حتى إنه لا سؤال عن تجربتها وملاحظتها وهو ما أكده «ر.س.لل» من أنها وسيلة لتفسير مظاهر الخلق وليست بملاحظة واقعية.[٣]

٣-إن النظرية تتعارض مع الواقع المشاهد المحسوس الذي يؤكد على ثبات حقائق الأشياء، "فالحلقة المفقودة قد وقفت أصحاب مذهب التطور موقف العجز والسلبية؛ لأنه يجب لإثبات التطور علميا أن توجد طبقة من المخلوقات تكون قد حوت كثيرا من صفات كل من النوعين "المتطور عنه والمتطور إليه" في شيء من الوضوح الذي لا يزال يضؤل حتى ينعدم، وحينئذ يفقد الكائن المتطور كل صفات أصله القديم ويقتصر على صفات النوع المتطور، ولكنهم ماداموا قد عجزوا عن الإتيان بهذه الحلقة فقد قضوا على مذهبهم القضاء الأخير، وصيّروه مؤسسا على أوهام وتكهنات لا تغني من الحق شيئا، ولو أنهم آتوا بآلاف السنين وعجزوا عن هذه الحلقة المطلوبة لكانوا كأنهم لم يأتوا بشيء؛ لأنهم يكونون إذ ذاك قد أثبتوا التطور الذي يقضي بارتقاء أفراد كل نوع في داخل حدود دائرته دون أن يتعداها إلى دائرة النوع الآخر، وهذا لا ننكره عليهم ولا نعارضهم فيه؛ لأنه مشاهد لدى أفراد كل نوع، أما الذي نجحده كل الجحد فهو تخطي تلك العقبة الهائلة وهي النوعية التي لا يستسيغ العقل المستقيم تسامحها في شخصيتها وتنازلها عنها واندماجها في نوعية أخرى".[٤]

٤-إن نظرية النشوء والارتقاء مبتورة من أساسها؛ لأنها لم تكشف لنا عن كيفية خروج الحياة من الجمادات، وهو إذا كانوا يدعون أن الحياة قد نشأت لأول مرة في «الأميبا» فلا ندري كيف خرجت الأميبا الحية من مادة لا حياة فيها، ولو سلمنا جدلا أن الحياة

١.راجع قصة الصراع بين منطق اليونان ومنطق المسلمين د.سعد الدين السيد صالح ص١٥٦ دار الأرقم ١٩٩٠م.
٢.قوانين الفكر بين الاعتقاد والإنكار لأستاذنا الدكتور سعدالدين السيد صالح ص٩٤، ٩٥، المكتب العلمي الحديث للطباعة.
٣.راجع الإسلام يتحدى للأستاذ وحيد الدين خان ص٤٥ ترجمة ظفر الإسلام خان مكتبة الرسالة.
٤.الفلسفة العامة د.محمد غلاب ص١٩٥، وقصة الإيمان للشيخ الجسر ص١٨٧ وموقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين للشيخ مصطفى صبري ٢٨١/٢ دار إحياء التراث بيروت.

قد نشأت من هذه المادة الحية فهل يمكن وجود هذه الأميبا بذاتها دون أن تحتاج إلى موجد وخالق يوجدها ويخرجها من العدم إلى الوجود؟؟!! إن العقل البشري يقطع بأن كل معلول لابد له من علة، وكل مسبب لابد له من سبب، فما هو السبب في وجود الأميبا؟؟؟[١]

٥-إذا كانت نظرية التطور تعتمد على التشابه بين الإنسان والحيوان في الصفات الجسمية فلماذا وقف التطور عند الإنسان؟؟ ولماذا لم يتطور الإنسان إلى نوع آخر ما دام هناك حتمية للتطور؟؟ ولماذا لم نشاهد قردا قد وصل في التطور إلى درجة الإنسان.[٢]

المبحث الرابع: شبه النشوئيين الماديين على قضية الإيمان بالله تعالى وموقف الشيخ حسين الجسر منها.

المطلب الأول: شبه النشوئيين الماديين على قضية الإيمان بالله تعالى.

لقد كانت نظرية النشوء والارتقاء سببا في انتشار الإلحاد إذ كانت العقبة الأساسية أمام حركة الإلحاد في أوربا هي الإجابة على هذا السؤال: إذ لم يكن الله موجودا، فكيف خُلِق العالم؟ وقد وجد "داروين" الإجابة على هذا السؤال من خلال الفلسفة اليونانية القديمة حيث قال «أنكسمنس Anaximenes»[٣] بنظرية التطور والتوالد الذاتي، فأخذ داروين النظرية وفصلها في كتابه أصل الأنواع، وحاول تصفية العقيدة الدينية من الوجود.[٤] فنظرية «داروين» في النشوء والارتقاء نظرية مادية إلحادية لأنه لم يستثن الإنسان من قانون التطور العام أو يعلق مسألة النفس الناطقة، وذهب إلى أن الحياة النفسية في الإنسان كما في الحيوان مرتبطة بفعل الأعضاء، وقام بدراستها من الدرجات الدنيا إلى الدرجات العليا على هذا الاعتبار، وقد كان مؤمنا بالله إلى وقت ظهور كتابه "أصل الأنواع" وقال في ختامه إن الصور الحية الأولى مخلوقة، ثم تطور فكره شيئا فشيئا حتى أعلن أسفه لاستعماله لفظ الخلق مجاراة للرأي العام، وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز، وأن ما في العالم من آلام يعدل بنا عن القول بعناية إلهية، وأنه هو لا أدرى، فلا يقول بالعناية ولا بالصدفة، وأن الكلمة الأخيرة عنده هي أن المسألة خارجة عن نطاق العقل، ولكن بوسع الإنسان أن يؤدى واجبه.[٥] وقد تلقفت الفلسفات المادية مذهب «داروين» واتخذت منه سلاحا تحارب به الدين باسم العلم، ورأوا أن عدم القول بها يجعل بداية الخلق لغزا عصيا؛ لأنهم لا يمكنهم تصور فكرة الخلق المباشر من العدم، واستغلوا المذهب في إنكار وجود الله تعالى، فأرنست هيكل ينكر الأديان وما جاءت به من عقائد تتعلق بوجود الله والبعث والجزاء ومصير النفس الإنسانية وحرية الإرادة فيقول: "والمسائل المعقدة، صعبة

١.العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث د.سعد صالح ص١١٣.
٢.الأخلاق النظرية للأستاذ أبو بكر ذكري ص١١٣ وراجع العقيدة الإسلامية د.سعد الدين السيد صالح ص١٠٩ وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٨٧، والإنسان في القرآن د.صلاح عبد العليم إبراهيم ص١٩٠.
٣.فيلسوف يوناني، ولد عام ٥٨٨ قم، وتوفى عام ٥٢٥ق.م، كان تلميذا لأنكسمندريس اليوناني، وينتمي لمدرسة الطبيعيين الأوليين، راجع معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ص١٠٧.
٤.راجع انهيار الشيوعية أمام الإسلام د.سعد الدين صالح ص٧٧، وداروين ونظرية التطور لشمس الدين آق بلوت ص١٠٠ ترجمة أورخان محمد علي، دار الصحوة.
٥.تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص٣٥٤، ٣٥٥.

الحل، الغير معقولة مطلقا ثلاث، أما الأولى: فالاعتقاد بوجود إرادة حرة مطلقة في الإنسان، وأما الثانية: فالإيمان بوجود روح خالدة، وأما الثالثة: فالتصديق بوجود إله".[١]

ويذكر الشيخ حسين الجسر أن النشوئيين الماديين قد تمسكوا بعدة شبه حالت بينهم وبين الإيمان بوجود الله تعالى وبأنه خالق الكون من العدم، وهذه الشبه هي:

١-قدم المادة وقدم حركتها.

٢-عجز العقول عن تصور كنه الإله الذي ليس كمثله شيء.

٣-إن العقول قاصرة عن تصور خلق المادة من العدم.

٤-وجود أشياء في العالم لا تنطبق على القصد والحكمة.

وسبيلنا الآن بيان هذه الشبه التي تمسك بها هؤلاء النشوئيون، وبيان لموقف الشيخ الجسر منها:

الشبهة الأولى: يرى الماديون أن أصل العالم أمران هما المادة وقوتها أي حركتها، وهما قديمتان متلازمتان من الأزل، وليس لهذه الحركة سبب إلا نفسها، وإن المخلوقات كلها تكونت من المادة بواسطة حركتها وحدثت بعد إن لم تكن، حدوث المعلول عن علته بمقتضى الضرورة، وليس للمادة وحركتها إرادة وقصد في تكوين شيء منها، ويدعي النشوئيون أنه قد ثبت لديهم حدوث الحيوانات والنباتات بعد أن لم تكن باكتشاف طبقات الأرض التي ظهر لهم منها أن آخر طبقة وصلوا إليها خالية من الأحياء وآثارها، وأنه مر على الأرض زمن كانت في خالية من الأجسام الحية، وأنه بتجمع أجزاء المادة بواسطة حركتها تكونت العناصر الأصلية، وبتمازجها على نسب مخصوصة تكونت الأجسام الحية، وأن أول شيء تكون من الأجسام الحية مادة زلالية لها قوة التغذي والانقسام والتولد، ومن تولدها حدثت أبسط النباتات والحيوانات، وأن هذه الأحياء أخذت في التكاثر والتنوع بتأثير النواميس الأربعة حتى وصلت بعد كر الملايين من السنين إلى ما وصلت إليه اليوم.[٢]

الشبهة الثانية: يدعي الماديون أنه لا يمكن أن تتصور عقولنا وجود شيء ليس بجسم ولا مادة جسم ولا صورة جسم ولا مادة معقولة ولا له قسمة في الكم ولا في الكيف، وليس كمثله شيء.

الشبهة الثالثة: يرى النشوئيون أنه لا يمكن أن تتصور عقولنا وجود شيء من لا شيء أي حصول المادة من العدم.

الشبهة الرابعة: يرى الدهريون الماديون أنه لو كان نظام الكائنات بقصد وإرادة وحكمة لكانت علامات القصد والحكمة تامة في كل شيء، مع أننا نرى أشياء لا تنطبق على القصد والحكمة، ومن العبث عندهم أن يكون له غاية يهدف إليها.[٣]

المطلب الثاني: موقف الشيخ الجسر من شبه النشوئيين الماديين.

الشبهة الأولى: عندما يناقش الجسر هذه الشبهة للنشوئيين يبين أنها تنطوي على ثلاث قضايا، **فالقضية الأولى** أنهم قالوا بقدم المادة وقدم حركتها، وأنهما

١.فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء – أرنست هيكل، ص٩٠ مطبعة الشباب، القاهرة، ١٩٢٤م.

٢.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٥٦، وقصة الإيمان لنديم الجسر ص١٩٧.

٣.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٦٧، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص ٢٠٤، والطبيعة وما بعد الطبيعة للأستاذ يوسف كرم ص١٤ كلمات عربية للترجمة والنشر٢٠١٢م.

متلازمتان من الأزل لا تنفكان عن بعضهما، **والثانية:** أنهم قالوا بحدوث الأنواع الحية بعد أن انكشف لهم من علم طبقات الأرض أن أنواع الحيوانات والنباتات قد حدثت في الأرض بعد أن لم تكن، وأن الإنسان أحدثها عهدا، **والثالثة:** أنهم قالوا: إن جميع التنوعات حدثت بواسطة حركة أجزاء المادة، تلك الحركة الملازمة لها من الأزل على وجه الضرورة، ولم يكن للمادة ولا لحركتها اختيار في ذلك ولا إرادة، ومعنى ذلك أن التنوعات حدثت عن المادة وحركتها حدوث المعلول عن علته، ويرد الجسر عن ذلك بأمرين:

الأول: لو كانت علة التنوعات قديمة لكان الاستعداد لها قديما، ولو كان الاستعداد قديما لكانت التنوعات قديمة، واللازم باطل، فالملزوم كذلك.

بيان الملازمة: إنه لا شك أن الاستعداد ناشيء عن العلة الأولى بالاضطرار فيكون كمعلول لها وتلك العلة قديمة فيلزم أن يكون قديما ويتبعه قدم التنوعات المعلولة وإلا يلزم وجود العلة في الأزل بدون المعلول وهو محال، فإما أن يقولوا بقدم تلك التنوعات المعلولة ويكذبوا ما ثبت في علومهم الطبيعية واكتشافاتهم لطبقات الأرض، وهم لا يقولون بذلك، وإما أن يقولوا أن المادة وحركتها فاعلتان بالاختيار فخصصتا زمانا لحدوث التنوعات، وهذا مرفوض عندهم أيضا، وإما أن يقولوا بحدوث المادة وحركتها وهو المطلوب.[١]

والخلاصة: إن كل عقل سليم يحكم حكما قاطعا بأن الشيء لا يتخلف عن علته المستلزمة له ألبتة، فإن كانت علته حادثة كان هو حادثا عقبها بدون تأخير، وإن كانت قديمة كان هو قديما وإلا لزم وجود العلة بدون المعلول، وهو محال عقلا، فقولهم بقدم المادة وقدم حركتها اللتين هما علة التنوعات الكونية من جماد ونبات وحيوان يلزم منه قدم هذه التنوعات، وهم لا يقولون بقدمها. فالنشوئيون في هذا بين ثلاثة أمور: إما أن يقولوا بقدم تلك التنوعات المعلولة تبعا لقدم علتها خلافا لما ثبت بالاكتشافات العلمية، وإما أن يقولوا أن المادة وحركتها فاعلتان بالاختيار والإرادة فخصصتا زمانا معينا لحدوث التنوعات، وهذا ما ينكروه أشد الإنكار، وإما أن يقولوا بحدوث المادة وحركتها وهو المطلوب.[٢]

الثاني: لا يخفى أن المادة لا يعقل أن تخلو من صورة تقوم بها، ولذلك قالوا إن المادة وحركتها اللتين عنهما تنشأ الصورة قديمتان متلازمتان، ولكن العقل السليم يقطع بأن كل صورة تقوم في المادة هي حادثة لأنها تزول وتتغير ولو كانت أبسط صورة بدليل أن تلك الصور البسيطة قد تغيرت وانعدمت وخلفتها صور التنوعات الحية التي أثبتم أن وجودها في طبقات الأرض حادث.

ولا يخفى على عاقل أن كل ما يطرأ عليه العدم يستحيل عليه القدم، وأن ما ثبت قدمه استحال عدمه، فمادامت الصورة اللازمة للمادة حادثة، فلا يمكن أن تكون المادة قديمة؛ لأننا إذا رجعنا لأبسط صورة كانت للمادة نجد أن هذه الصورة حادثة أيضا، بدليل قبولها للعدم، فقبل حدوثها ماذا كان حال المادة؟ إما أن يقال إنها كانت بدون الصورة، وهذا ما ينفيه الماديون لأنه محال عقلا، فالمادة لم تكن أبدا بدون صورة، وإما أن تقولوا إن المادة حدثت مع الصورة فتكون حادثة لا قديمة.

وبعبارة أخرى نقول: إن المادة بحسب قولكم وبحكم العقل السليم ملزومة للصورة، والصورة لازمة للمادة لا تنفك عنها، فلو كانت المادة الملزومة قديمة لكانت

١.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص١٦٣.

٢.الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص١٦٠، ١٦١.

الصورة اللازمة قديمة لعدم جواز انفكاك اللازم عن الملزوم عقلا، ولكن هذه الصورة ليست بقديمة بدليل قبولها العدم، فالمادة إذاً ليست قديمة.[١] وبعد أن يبرهن الشيخ حسين الجسر على حدوث العالم بمادته وصورته يقرر أن الحادث لابد له من محدث يحدثه ويترجح به وجوده على عدمه؛ وإلا لزم الترجيح بلا مرجح وهو من المحالات العقلية البديهية، وإذا ثبت أن المادة حادثة فلابد من شيء حدثت عنه وترجح به وجودها على عدمها، وهذا الشيء لابد أن يكون موجودا، لأن المعدوم لا يوجد عنه شيء، وهذا الموجد هو الله تعالى، ولابد – عقلا – أن يكون هذا الموجود قديما؛ لأنه لو كان حادثا لاحتاج إلى محدث فيلزم إما الدور أو التسلسل، وكلاهما محال عقلا.

ثم إن هذا الموجد القديم الذي أحدث المادة إما أن يكون حدوثها عنه بطريق العلية والضرورة بدون إرادة واختيار، وإما أن يكون حدوثها عنه بطريق الإرادة والاختيار، وغير جائز عقلا أن يكون حدوثها بطريق العلية؛ لأنه لو كان كذلك وهو قديم للزم أن تكون المادة قديمة وتنوعاتها قديمة، وقد ثبت حدوثها وحدوث تنوعاتها، فلم يبق إلا أنها حدثت بإرادته واختياره وتخصيصه لهذا الوقت الذي وُجدت فيه، فثبت بهذا أن ذلك الموجد القديم مريد مختار، ثم إن الإرادة تصلح لترجيح الوجود على العدم وتخصيص زمانه وإما نفس الوجود فلا يتم بالإرادة وحدها بل لابد من القدرة والعلم.[٢]

وأما الجواب عن **الشبهة الثانية** فالجسر يدفعها بأمرين:

الأول: إن أتباع محمد ﷺ يستدلون على وجود إله العالم وصفاته بهذه الكائنات؛ لأن وجودها بنفسها غير ممكن مع قيام الدليل على حدوثها، وهذه الكائنات قد بلغت من العظمة والصنع الغريب والترتيب البديع العجيب والإتقان والإحكام درجة رفيعة جدا تعجز العقول البشرية عن الإحاطة بجميع دقائقها، وهذا ظَاهر لمن نظر فِي الْآفَاق والأنفس وَتَأمل ارتباط العلويات بالسفليات سِيمَا فِي الْحَيَوَانَات وَمَا هديت إِلَيْهِ من مصالحها وَأعْطيت من الْآلَات الْمُنَاسبَة لَهَا، ويعين على ذَلِك علم التشريح وَمَنَافع خلقَة الْإِنْسَان وأعضائه الَّتِي قد كسرت عَلَيْهَا المجلدات، فهي إذاً تدل على عظمة مبدعها وعظمة صفاته وسمو حكمته إلى درجة لا تدخل تحت الحصر ولا تحيط بها الأفكار، وهذا شأن العقل البشري أن يستدل على مقدار عظمة المؤثر بمقدار عظمة الآثار.[٣]

الثاني: إن الماديين لو نظروا إلى منزلتهم في العلم لوجدوا أنهم – وهم من أعاظم العلماء في شتى فنون العلم – لا يزالون على شاطئ بحر عظيم لا تعرف نهايته ولا يسبر غوره، وطالما اعترف أكابرهم بالعجز والتقصير في معرفة كثير من أسرار الكون وحقيقة المادة التي يرونها بأعينهم ويذوقونها بألسنتهم ويصرفونها في طرق الحياة والعيش، وهم حتى اليوم لم يعرفوا حقيقتها وكنهها، كما أنهم لا يزالون عاجزين ومقرين بالعجز عن معرفة حقيقة الحياة، وحقيقة العقل والإدراك وغاية ما أوصلهم إليه التفكير أنهم قالوا إن الحياة ظاهرة من ظواهر تفاعل أجزاء المادة

١.الرسالة الحميدية للشيخ الجسر ص١٦٥، ١٦٦ وقصة الإيمان لنديم الجسر ص١٩٩.
٢.راجع الرسالة الحميدية للشيخ الجسر ص١٦٦، وقصة الإيمان للشيخ نديم ص٢٠٠.
٣.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٦٧ والمواقف للإيجي بشرح السيد الشريف الجرجاني ٩٣/٣، الطبعة الأولى، دار الجيل، لبنان.

والعقل ظاهر من جملة تلك الظواهر، فإذا كان هذا شأنهم وهم العلماء في معرفة أقرب الأشياء إليهم وألصقها وأمسها بهم فهل يطمعون أن يصلوا بعقولهم إلى معرفة حقيقة الله تعالى؟ وهل يرجو الإنسان الذي لا يعرف المادة التي يلمسها ويأكلها ويشربها ويشمها أن يعرف كنه ذات الله تعالى؟ وهل يرجو الإنسان الذي لا يعرف كيف يعرف ولا يدرك كيف يدرك ولا يعقل كيف يعقل أن يدرك حقيقة الله تعالى؟ إنكم أيها الماديون إلى اليوم عاجزون عن معرفة الطريقة التي يتم بها الإدراك والوسيلة التي يتم بها الاتصال بين المادة والعقل، والكيفية التي يتلقى بها العقل الروحاني الإحساس بالشيء المادي فيدركه فهل تطمعون أن تعرفوا كنه ذات الله تعالى؟ ويحملكم على إنكاره قصور العقول عن تصوره على الصورة التي تعودتم إدراك الأجسام المادية بها؟

الحق أنه إذا كانت عقول البشر قاصرة لا تتمكن من تصور الإله فلا يلزم منه عدم وجوده إذ أن كثيرا من الحقائق لم نتمكن من تصورها حق التصور وتكون في الحقيقة موجودة ويقوم الدليل العقلي على وجودها. وأما الجزم بأنه لا يمكن وجود شيء متصف بتلك الصفات بريء من الجسمية والمادة قد نشأ مع الماديين من قياس الغائب على الشاهد، وهذا القياس ليس دليلا قاطعا، ويكفي العقول أن تستدل على وجود الله وصفاته بآثاره، وكل ما في العالم من وجود ونظام واتقان وإحكام دلائل قاطعة على وجوده سبحانه وعلى علمه وقدرته وحكمته.(١)

والحق أن هذا – ادعاء الماديين أنه لا يمكن أن تتصور عقولنا وجود شيء ليس بجسم ولا مادة جسم ولا صورة جسم ولا مادة معقولة ولا له قسمة في الكم ولا في الكيف – حكم الْوَهم وهو يجري فِي الْأُمُور المحسوسة، بِخِلَاف حكمه فِي المجردات والمعقولات الصرفة؛ فَإِنَّهُ إِذا حكم عَلَيْهَا بِأَحْكَام المحسوسات كَانَ حكمه هُنَاكَ كَاذِبًا كحكمه بِأَن كل مَوْجُود لَابُد أَن يكون جسما فِي جِهَة وَفِي مَكَان، وله صورة(٢) وَرُبمَا يستعان فِي تصور مَوْجُود لَا حيّز لَهُ أصلا بالإنسان الْكُلِّي الْمُشْتَرك بَين أَفْرَاده وَعلمنَا بِهِ، فَإِنَّهُمَا موجودان وليسا بمتحيزين قطعا، أما الأول فلأنه لَو كَانَ متحيزا أَو حَالا فِيهِ لاختص بِمِقْدَار معِين وَوضع مَخْصُوص فَلَا يُطَابق أفرادا متباينة الْمَقَادِير والأوضاع فَلَا يكون مُشْتَركا بَينهَا، وَأما الثَّانِي فَلِأَن الْعلم بالماهية الْكُلية لَا يخْتَص بِمِقْدَار وَوضع مخصوصين، وَإِلَّا لم يكن علما بِتِلْكَ الْمَاهِيّة.(٣)

وباختصار نقول مع الإمام الرازي إن من أَرَادَ أَن يشرع فِي المعارف الإلهية فليستحدث لنَفسِهِ فطْرَة أُخْرَى، فالإنسان إِذا تَأمل فِي أَحْوَال الأجرام السفلية والعلوية وَتَأمل فِي صفاتها فَذَلِك لَهُ قانون، وإِذا أَرَادَ أَن ينْتَقل مِنْهَا إِلَى معرفَة الربوبية وَجب أَن يستحدث لنَفسِهِ فطْرَة أخرى وعقلا آخرا بخلاف الْعقل الَّذِي بِهِ اهْتَدَى إِلَى معرفَة الجسمانيات والحسيات.(٤)

وأما الشبهة الثالثة: وهي عجز العقول عن تصور خلق العالم من العدم فيقرر الجسر في جوابها أن عدم تصور

١.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٦٧، ٢٧٧، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢٠٦، والبرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني ١٠٦/١، والمستصفى للإمام الغزالي ٣٣٥/٢.

٢.المواقف لعضد الدين الإيجي بشرح الجرجاني ١٩٨/١.

٣.راجع المواقف للإيجي بشرح الجرجاني ٣٥/٣ وشرح المقاصد للسعد التفتازاني ٣٢٢/١.

٤.أساس التقديس في علم الكلام للإمام الرازي ص٢١، ٢٢ الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

حقيقة الأمر لا يكون دليلا على عدمه في نفسه، وما نشأ هذا العجز عن تصور إيجاد شيء من لا شيء إلا من قياس التمثيل[١]، لأنهم لم يشاهدوا شيئا خلق من لا شيء ولكن عدم مشاهدة حدوث شيء من لا شيء لا يلزم منه أن ذلك محال، وقياس التمثيل ليس قطعي الدلالة، بل كثيرا ما يوقع في الغلط، ولا تقاس قدرة الله تعالى على قدرة البشر وعلمه تعالى على علمهم، للاختلاف بين المقيس والمقيس عليه، فالفرق بين القدرتين عظيم، ونحن نقر بالعجز عن إدراك كيفية خلقه سبحانه للعالم من لا شيء ولكن العجز عن تصور حقيقة الشيء الذي قام الدليل العقلي على وجوده لا ينافي الاعتقاد بوجوده.[٢]

يقول الشيخ حسين الجسر: "إنكم لو تأملتم في أعمالكم لا تجدون لأنفسكم صنعا حقيقيا فيها انظروا إلى تحليلكم المعدن الفلاني مثلا إلى عناصره أو تركيبكم المركب الفلاني من عنصرين أو أكثر يظهر لكم أنكم ما أجريتم إلا الأسباب في التحليل أو التركيب التي اطلعتم على أنها تكون سببا في ذلك من نحو خلط كذا بكذا أو إحماء كذا وتغطيسه بكذا حتى يحدث التحليل أو التركيب، أما حقيقة تميز العناصر وكيفية انفصالها عن بعضها أو حقيقة امتزاجها على أوضاع أجزائها التي ينشأ عنها المطلوب فأنتم في الحقيقة تعجزون عن تصور جميع ذلك حق التصور وعن شرحه بالشرح الواضح فضلا عن أنكم أنتم الذين عملتم ذلك كله وخلصتم الأجزاء الفردة لكل عنصر من بين الأجزاء الفردة للآخر على الأوضاع اللازمة في صورة التركيب، وبهذا ظهر عجزكم في الصناعة أيضا كما ظهر عجزكم في الإدراك والمعرفة أبعد ذلك تتطاولون إلى قياس أعمال ذلك الإله على أعمالكم، وقدرته على قدرتكم؟!"[٣]

والحق أن هؤلاء الدهريين الماديين يطلبون ربهم في المحسوسات وما يتشكل في الأوهام، ويتقدر في مجاري الوساوس وخواطر الهواجس، وهذا حيد بالكلية عن صفات الإلهية، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يدركوا الروح وهي من خلق الله تعالى بهذا المسلك لم يجدوا إلى ذلك سبيلا، فإنه معقول غير محسوس[٤]، ولو أن أحدا من البشر أراد أن يتصور الأرض برحبها برا وبحرا لما تمثل منها إلا قدرا صغيرا، ومبلغا يسيرا، وإن أحدا من الأحياء لو فكر في حياته، وأراد أن يمثلها في فكره لتمثلت له الحياة شكلا متشكلا، وهكذا تزِل الأوهام عن كثير من المخلوقات فكيف السبيل إلى أن ندرك بها الرب تعالى الذي لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئا؟ فمن صفة الإله تقدسه عن التصور فكيف يستقيم على منهاج الحق من يطلب معرفة من لا يتصور بالتصور[٥]، فاللبيب إذاً من ترك الوهم والخيال جانبا، ولم يتخذ غير

١.قياس التمثيل هو إثبات حكم واحد في جزئي لوجود ذلك الحكم في جزئي آخر لمعنى مشترك بين الجزأين يوجب ذلك الحكم، وهذا القياس لا يفيد اليقين لأن من قال به من الأصوليين قد أثبت عِلِّية المعنى المشترك بالدوران، أو السبر والتقسيم، وكلاهما ضعيف، راجع تيسير القواعد المنطقية ا.د.محمد شمس الدين إبراهيم سالم ص٢٦٦، الطبعة الرابعة، مطبعة حسان، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٢.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٧٣، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢٠٦ والمواقف لعضد الدين الإيجي بشرح الجرجاني ٢٨/٢، وشرح الدواني على العقائد العضدية ٢٧٣/١.

٣.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٧٤ وأبكار الأفكار لسيف الدين الآمدي ٢٧٠/١.

٤.راجع العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية لإمام الحرمين الجويني ص١٥ تحقيق زاهد الكوثري المكتبة الأزهرية للتراث.

٥.الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين ٥٢٧/١، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٦٩م.

البرهان والدليل صاحبا.[١] فالنفس البشرية قد اعتادت أن تبسط على معارفها حكم الحس والخيال، وكلاهما وليد المشاهدة وربيبها، ومن ثم تضحى الموجودات بأسرها ما شوهد نظيره وما لم يشاهد نظيره منطوية تحت أحكام الحس والخيال ويصبح لزاما على العقل حينئذ أن يقاوم تلك العادة الباطنة في أعماق الذات، وأن يحاول الاعتلاء عليها والارتقاء فوقها إذا ابتغى معرفة الإلهيات.[٢]

وأما **الشبهة الرابعة** وهي قولهم إنهم يرون في الكون أشياء لا تنطبق على القصد والحكمة بل هي أشد انطباقا على الضرورة فالجواب عليها: أننا نشاهد من أسرار الله في مصنوعاته الحكم الباهرة، ولم تزل تظهر لنا يوما بعد يوم حكمة بعد أخرى، مما كان خافيا علينا دهورا طويلة، فإذا شاهدنا شيئا لم تظهر لنا فيه حكمة لم نعتقد أنه وجد عبثا، بل نقول إن الإله حكيم، والدليل على كونه حكيما ما شاهدناه من آثار حكمته وما لا نزال نطلع عليه يوما بعد يوم من دلائل هذه الحكمة التي بقى بعضها خافيا عنا أزمانا طويلة ثم ظهر لنا فلابد إذاً أن يكون هذا الشيء الذي لم تظهر لنا حكمته مبنيا على حكمة خفيت عنا وقد تظهر لنا في يوم من الأيام، كما ظهر سواها، وإذا تأملنا في قصور العقل البشري وعجزه عن إدراك كثير من الأمور المادية المشاهدة لنا وقارنا بين هذا العجز وبين قدرة الله العظمى وحكمته لم نستغرب اختفاء حكمة بعض الأشياء عن عقولنا ورأينا أن الأولى قياس القليل النادر، مما لم تظهر حكمته على الكثير الذي لا يعد ولا يحصى من شواهد حكم الله الظاهرة في مخلوقاته، لا أن نتخذ من هذا القليل النادر الذي خفيت حكمته دليلا على إنكار وجود الله الخالق.[٣]

ويضرب الجسر لذلك مثلا رائعا فيقرر أننا إذا نظرنا إلى الحيوانات المكرسكوبية التي يوجد منها في نقطة الماء الصغيرة ألوف وملايين وجدنا لها من الإدراك ما يكفيها لتأمين معيشتها، ولكن هل ننتظر منها أن تدرك حقيقة الإنسان وتتصور تفاصيل أعضاءه ووظائفها وكيفية سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه وتغذيه وعمل الدورة الدموية في جسده وكيفية تفكيره وأسرار أعماله ومصنوعاته وتآليفه ومخترعاته ومبتكراته أو أن تعلم كيف اخترعها وأوجدها ولماذا صنعها، والإنسان أقل من تلك الحيوانات الصغيرة علما وقدرة بالنسبة إلى علم الله وقدرته وحكمته بل إن الفرق بين العلمين والقدرتين والحكمتين أعظم بكثير، فعلينا إذا نازعتنا نفوسنا وطلبت منا التعرض لمعرفة حقيقة ذلك الإله العظيم وكنه ذاته المقدسة، ومعرفة كيفية خلق العالم ولماذا خلقه وما الحكمة في كل شيء نشاهده أن نعترف بعجز عقولنا البشرية، ويكفينا لمعرفته والإقرار بوجوده وقدرته وحكمته ما دلتنا عليه آثاره وما شاهدناه من أنوار الحكمة في أكثر تلك الآثار لا أن نتخذ من خفاء حكمة القليل النادر سببا مبررا لإنكار وجوده، ونسبة ما لا يعد ولا يحصى من آثار الحكمة والإتقان إلى عمل الضرورة العمياء.[٤]

١.غاية المرام في علم الكلام لسيف الدين الآمدي ص١٨٥ المحقق: حسن محمود عبد اللطيف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة.

٢.راجع موقف السلف من المتشابهات لأستاذنا الدكتور محمد عبد الفضيل القوصي ص١٠، ١١ إدارة التحرير والنشر بالرابطة العالمية لخريجي الأزهر.

٣.راجع الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر ص٢٧٧، ٢٧٨، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٢٠٧.

٤.الرسالة الحميدية ص٢٧٨، ٢٧٩، وقصة الإيمان ص٢٠٧، ٢٠٨.

والحق أن البحث العلمي النزيه لابد أن يصل حتما بصاحبه إلى الإيمان بوجود الله تعالى؛ لأنه من المسلم أن الإيمان به ﷻ مسألة وعي كوني وشعور باطني قبل كل شيء، فالإنسان له وعي يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية وله وعي بما في الكون من جمال ونظام وتناسق وإحكام وبما فيه من أسرار وألغاز وغيوب، وهو لا يخلو كذلك من وعي يقيني وشعور ذاتي فطري بالحقيقة الكونية والوجود الأعظم؛ لأنه متصل بهذا الوجود، بل قائم عليه مدبر له، معْنِي به، فالوعي الكوني المركب في طبيعة الإنسان والمركوز في ضميره هو مصدر وجود الإيمان بوجود الحقيقة الإلهية الكبرى التي تحيط بالكل، وهذا الوعي الكوني هو ما يعبر عنه أحيانا بدليل الفطرة أو بالغريزة الدينية التي تميز الإنسان عن الحيوان، والتي جعلت عالم الغيب والخفاء مستقر وجود وثبات، ودفعت الإنسان إلى الإيمان بوجود شيء لا يراه بعينه ولا يلمسه بيديه.[١]

المبحث الخامس: آثار نظرية النشوء والارتقاء على الأخلاق والتيارات المادية.

المطلب الأول: آثار نظرية النشوء والارتقاء على الأخلاق.

لقد عملت فلسفة النشوء والارتقاء على إثارة الغريزة وتبرير جموحها من حيث إنها مظهر القوة الحيوية، وحاولت أن ترد إليها استعداداتنا العقلية والخلقية على أن هذه الاستعدادات نماء الغريزة وازدهارها، فخلطت بين دائرتين لا اشتراك بينهما، وتجاهلت ثنائية الإنسان التي ألح عليها فلاسفة الأخلاق ردحا طويلا من الزمن[٢]، ونظر النشوئيون إلى الإنسان بعين واحدة تدفعه إلى إشباع الجانب الحيواني فقط دون أن تراعي فطرته التي فطره الله عليها، وأهملوا جوانب الإشباع الروحي فيه، وعملوا على إعلاء صوت الغريزة وإسكات صوت العقل، فبدلا من أن يوجه الإنسان سلوكه وغرائزه على أساس من العقل المنضبط بتعاليم الشرع والذي يتحكم في الغرائز الحيوانية، فيسمح بإشباع ما يمكن إشباعه مما يتفق مع مصلحة الإنسان معا نجد هذه النظرية تدفع الإنسان إلى توجيه سلوكه على أساس من الغرائز الحيوانية، والانطلاق في عالم السعار الجنسي الذي ينحط بالإنسان إلى عالم الحيوان.[٣]

ولهذا يرى داروين أنه لا يجب على الإنسان حماية الضعفاء والمرضى، بل يستنكر ما تفعله الأمم من أجل حماية ضعفائهم في أشكال الرعاية الطبية المختلفة للعجزة والمرضى والزمنى والمجانين، وكذلك ما يبديه بعض الأفراد والأصحاء من التعاطف والتراحم، ويؤكد أن ذلك ليس إلا أمرا مظهريا تجاه هذه الظاهرة تفرضه علينا الغريزة الاجتماعية، وليس في وسعنا نحن المتحضرين أن نوقف تيار هذا التعاطف الوجداني إلا إذا قضينا على أنبل جزء من طبيعتنا.[٤] ولقد تأثر «سيجموند فرويد Sigmund Freud»[٥] بهذه النظرية الداروينية في التحليل النفسي "Psychoanalysis" فاعتبر أن

١.الله للأستاذ عباس العقاد ص١٤٥، وراجع دراسات في العقيدة الإسلامية د.شوقي إبراهيم عبد الله ص٨٦.
٢.الإنسان في القرآن الكريم د.صلاح عبد العليم ص٢٠٦.
٣.راجع نظرية التحليل النفسي عند فرويد د.سعد الدين السيد صالح ص١٠٥ دار الصحابة ١٩٩٤م.
٤.الفلسفة الخلقية، د.توفيق الطويل ص٢٢٢.
٥.فيلسوف ألماني ولد في فريبورج بمنطقة مورافيا عام ١٨٥٦م، صاحب مدرسة تفسر سلوك الإنسان تفسيرا جنسيا، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء، كما أنها تعتبر القيم والعقائد حواجز وعوائق تقف أمام الإشباع الجنسي مما يورث الإنسان عقدا وأمراضا نفسية، راجع المعجم الفلسفي د. مصطفى حسيبة ص٣٧٢.

غرائز الإنسان هي الامتداد الطبيعي لغرائز الحيوانات السابقة له، وأن الأخلاق مفروضة على الإنسان فرضا من قوة خارجية، مسيطرة عليه، ولذلك فهي عندهم لا تتفق مع طبيعته، كما اعتبروا الأخلاق قيودا تمنع النشاط الإنساني من الانطلاق، وتمنع الفرد من التمتع بحريته، وتصيبه بالأمراض النفسية فهي لذلك عندهم خطر على الإنسان.[١]

ومن المعلوم أن الأخلاق الفاضة هي التي تحقق السعادة للفرد والمجتمع من خلال إتباع الأفراد لقيم الخير واجتنابهم للشر وتحليهم بأفضل القيم الخلقية، ولذلك تجد الناس بغير الأخلاق كأنهم في غابة كبيرة يسيطر فيها القوي على الضعيف وتضيع فيها حقوق الضعفاء والمساكين، وقد حولت الحضارة الغربية التي قامت على النشوء والارتقاء الإنسان إلى خنزير لا هَمَّ له إلا المأكل والمشرب، وحولته إلى حيوان لا هَمَّ له إلا إشباع شهوته الجنسية يمارس الرزيلة دون حياء أو خجل وينظر إلى الفضيلة وأصحابها بازدراء واحتكار، كما حولت الإنسان إلى وحش مفترس يحقق مصالحه بالقوة والعنف ولو على حساب الآخرين، وهذه هي أخلاق الحضارة المادية التي تعاملت مع الإنسان كجسد فانٍ، ولم تتعامل معه كروح باقية خالدة.[٢]

وقد كان لمذهب داروين أثر على الأخلاق عند «سبنسر Spencer Herbert»[٣] الإنجليزي، الذي قرر أن الإحسان معارض للقانون الطبيعي الذي يقضي ببقاء الأصلح، ومؤدٍّ إلى انحطاط النوع الإنساني بالتدريج، وإن تقدم الأقوياء وسقوط الضعفاء نتيجة ضرورية، ويرى «سبنسر» أن تطور الأحياء يسير على أساس التوفيق والملاءمة بين الكائن الحي والبيئة التي يعيش فيها، والضرورات التي تكتنفه، والحاجات التي تساعده على الحياة والبقاء، وبحكم هذه الضرورات والحاجات تكونت أعضاء الحيوانات وحواسها حتى العقل وما فيه من الأفكار التي نسميها فطرية قد نشأت من هذا التطور، فأصل الغرائز انعكاسات متراكمة وعادات مستحكمة، ومن الغرائز تكون العقل، وما صور الأفكار الفطرية كقانون العلية وصيغ الزمان والمكان إلا طرائق غريزية للتفكير كسبها الجنس فأصبحت على كر الزمان راسخة قمة رسوخ الفطرة.[٤] ويتضح من ذلك أن الرجل لا ينظر إلى الإنسان إلا كما ننظر إلى الحيوان، ولا يفهم من الغيرية إلا أنها تبادل المنفعة، ويزيد في قسوته أن كثيرين من "الضعفاء" هم ضحايا لفساد المجتمع، فهم مظلومون يتعين على المجتمع تخفيف الظلم عنهم.[٥] وأيا ما كان الأمر فقد جاء «نيتشة Friedrich Friedrich Nietzche»[٦] وتأثر بداروين وطبق مذهبه في الأحياء على علم الأخلاق فجعل الخير في

١.راجع نظرية التحليل النفسي عند فرويد لأستاذنا الدكتور سعد الدين السيد صالح ص٥٨.
٢.الأخلاق في ضوء الفكر الإسلامي د.سعد الدين السيد صالح ص٤.
٣.فيلسوف إنجليزي ولد عام ١٨٢٠م وتوفي عام ١٩٠٣م راجع معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ص٣٥٦.
٤.قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٩٠، ١٩١ راجع تاريخ الأخلاق د.محمد يوسف موسى ص٢٨٠، ٢٨١ وتاريخ النظريات الأخلاقية للأستاذ أبو بكر ذكري ص٥٤ وتاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٦٤.
٥.تاريخ الفلسفة الحديثة المؤلف: يوسف كرم ص٣٦٤.
٦.هو فريدريش فلهلم نيتشة، ولد في روكن ببروسيا عام ١٨٤٤م ومات في فايمار عام ١٩٠٠م من مؤلفاته هكذا تكلم زرادشت، راجع معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ص٦٧٧، وموسوعة أعلام الفلسفة لمحمد أحمد منصور ص٣٢١.

القوة، والشر في الضعف وإن جر ذلك لرفض كل ما كان متعارفا من الأخلاق التي لا تقوم على سيادة القوة، فالقيم الأخلاقية والخير والشر مردهما إلى الطبيعة الإنسانية الخاصة وما فيها من غرائز، والناس هم الذين أقاموا الخير والشر وابتدعوهما لأنفسهم، وما اكتشفوهما ولا أنزلا عليهم بهاتف من السماء، ومادام الإنسان هو الذي قدر تلك القيم ولم يهملها فيجب أن تكون مختلفة لوجود فروق بين الناس تستدعي أن يكون العمل الواحد خيرا بالنسبة لهذا وشرا بالنسبة لذاك، يجب أن نفهم أن هذا الذي هو عدل لهذا قد لا يكون عدلا للآخر وأن المطالبة بأخلاق واحدة للجميع هو خسارة محققة للرجل القوي الممتاز، وأنه بالإجمال كما يوجد فرق في المرتبة بين إنسان وإنسان يجب أن يوجد فرق بين أخلاق وأخلاق.[١]

وإنه لأمر عجيب حقا أن يصدر عن «نيتشة» دستور للحياة الاجتماعية مبني على إرادة القوة، والإجهاز على الضعفاء، ونزع الرحمة من قلوب الناس، وهو البائس المريض!! ألم يعلم أن أول ضحايا فلسفته لو طبقت سيكون هو «نيتشة» نفسه؟! وأية قوة تلك التي يريد «نيتشة» أن يمتلكها الإنسان من المهد إلى اللحد؟؟. إن مجتمع العمالقة كما تصوره «نيتشة» لهو أدنى منزلة من مجتمع الجاهلية، فقد تعاقدت قبائل قريش وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غير أهلها ممن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته، وسمي ذلك بحلف الفضول، وقد شهده الرسول ﷺ قبل البعثة، وإن مجتمعا يقتسم المظالم، وتنزع منه الرحمة، ويرفع فيه السوط على جنسه اللطيف، ويشهر فيه السلاح دائما، ويتربص الدوائر بغيره، لهو مجتمع يتضاءل دونه مجتمع الغاب، ويسمو فوقه مجتمع الجاهلية، ولقد عانت الإنسانية كثيرا من مثل هذا الغرور الأحمق وتلك الأنانية العمياء، وأقرب صورة لذلك الحرب العالمية الثانية بقيادة هتلر الزعيم الألماني الذي تبنى نظرية السوبرمان، واشتعلت حرب ضارية أكثر من خمس سنين شملت أركان الأرض وأهلكت الحرث والنسل إلا أنها انتهت بهزيمة السوبرمان هزيمة منكرة.[٢]

المطلب الثاني: أثر نظرية النشوء والارتقاء في التيارات المادية.

أولا: أثر نظرية النشوء والارتقاء في الشيوعية.

لقد استعان «ماركس Karl Marx»[٣] بنظرية التطور التي قال بها داروين في التغير والتحول، كما أن المادية التاريخية الجدلية عند «ماركس» مبدؤها أن المادة هي كل الموجود، وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية، وعنده أن نمو الحياة الإنسانية يتوقف كله على الظروف المادية والاقتصادية، وأن درجة الحضارة تقاس بدرجة الثروة الزراعية والصناعية، وأن نوع الإنتاج في الحياة المادية شرط تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية على العموم، فليس وجدان الناس هو الذي يعين وجودهم، وإنما هو وجودهم الاجتماعي الذي يعين وجدانهم، والحياة

١.راجع هكذا تكلم زرادشت لفردريك نيتشة ص٢٥ وتاريخ الأخلاق د.محمد يوسف موسى ص٢٨٣.
٢.راجع المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي د.محمد المسير ص٤٣٦، ٤٣٧.

٣.فيلسوف ألماني ولد بمدينة تريز عام ١٨١٨م وتوفي عام ١٨٨٣م راجع المعجم الفلسفي د.مصطفى حسيبة ص٤٩٦ الطبعة الأولى، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان الأردن.

الاقتصادية تحقق قانون الصيرورة بأوقاته الثلاثة التي هي القضية ونقيضها والمركب منهما، وهذه هي المادية الجدلية، ومظهرها الاجتماعي الراهن "تنازع الطبقات".[١]

ومن المعلوم أن العوامل المحركة للتاريخ لا يمكن أن تنحصر في العامل المادي فقط، بل هناك عوامل متعددة لها تأثيرها في حركة الإنسان عبر التاريخ من أهمها العقيدة والعقل والفكر والروح، فالله تعالى هو الذي خلق الكون بقدرته وإرادته، وهو الذي وضع فيه السنن والنواميس الكونية الطبيعية، وهو الذي رتّب العلاقات بين الأسباب والمسببات، كما أن الله تعالى قد أطلق العنان للإنسان لكي يحث ويفكر وينظر ويكتشف هذه السنن الكونية التي وضعها الله في الكون؛ لأن الإنسان حر مختار وليس مجرد آلة معطلة الإرادة، وإنما هو عنصر خلاق يشارك في صنع تاريخه، وهو الذي يغير ويطور ويبني ويهدم بفكره وعقله وإرادته النابعة من ذاته، فوجدان الناس هو الذي يعين وجودهم، وليس وجودهم هو الذي يعين وجدانهم كما يدعي ماركس؛ لأن في ذلك انحطاطا بالإنسان العاقل المميز إلى درك الحيوانات.[٢] بل إن هذا الجدل التاريخي القائم على الصراع بين الطبقات، والمنتهي حتمًا عندهم إلى المجتمع البريء من الطبقات الكامل الاشتراكية باطل من جميع الوجوه؛ إنه باطل في أساسه المادي، وفي محاولته استخراج الموجودات على اختلاف أنواعها من المادة البحتة، وإذا كان للظروف المادية والاقتصادية أثرها في حياة الإنسان، فإن هذا الأثر لا يعدو تكييف هذه الحياة وتوجيه بعض أفعال الإنسان، وتبقى القوى الإنسانية ويبقى الوجدان، وهذا الجدل باطل في اعتماده على الإلحاد، ومن عجب العجاب أن تدعي الشيوعية أنها تقوم على فكرة العدالة على الرغم من أن العدالة ليست معروفة من الطبيعة الصماء، وليس الناس متساوين قوة ونشاطًا وذكاء، والنتيجة المنطقية للمادة أن يعتبر الإنسان كائنًا اقتصاديًّا فحسب، قانونه الطمع والمنفعة وتنازع البقاء بالأسلحة الطبيعية، لا عدالة إلا في مذهب يعترف بماهية إنسانية مشتركة بين أفراد النوع، وبحياة إنسانية أرفع من الحياة المادية، وهذان ركنان لا يعترف بهما المذهب المادي.[٣]

ثانيا: أثر نظرية النشوء والارتقاء في الوضعية المنطقية.

لقد أثرت الفلسفة النشوئية على «أوجست كونت Auguste Conte»[٤] وخصوصا في قانون الحالات الثلاث عندما تخيل أن هناك قانونا يحكم حركة تطور المعرفة والفكر ومنهج البحث عند الإنسان، فرأى أن العقل مر بحالات ثلاث: حالة لاهوتية، وحالة ميتافيزيقية، وحالة واقعية، أما "**الحالة اللاهوتية** Theological" فهي الحالة التي بدأت بها الإنسانية، وكان دأب العقل فيها هو البحث عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها، محاولًا إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك، وقد تدرج العقل الإنساني في ذلك درجات ثلاثا:

١.تاريخ الفلسفة الحديثة المؤلف: يوسف كرم ص٤٠٢.
٢.راجع انهيار الشيوعية أمام الإسلام لأستاذنا الدكتور سعد الدين السيد صالح ص١٧٠ دار الأرقم ١٩٩٣م.
٣.تاريخ الفلسفة الحديثة المؤلف: يوسف كرم ص٤٠٢.
٤.فيلسوف فرنسي كاثوليكي، صاحب الفلسفة الواقعية أو الوضعية، ولد عام ١٧٩٨م، وتوفي عام ١٨٥٧م راجع معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ص٥٤٠.

- "**الفيتشية** Fetichisme" حيث يضيف فيها العقل إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان، حيث تصور الإنسان أن الرياح والأمطار والشمس والقمر وغير ذلك كائنات حية، ولها أرواح شبيهة بحياة الإنسان فعبدها وفسر بها أحداث الوجود.(١)
- **تعدد الآلهة**، وهي أكثر الدرجات الثلاث تمييزًا للحالة اللاهوتية، فلقد سلب فيها الإنسان عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع عليها من حياة، ويضيف أفعالها إلى موجودات غير منظورة تؤلف عالمًا علويًّا، فبعد أن كان يعبد الشمس عبد إله الشمس، وبعد أن كان يعبد المطر عبد إله المطر وهكذا.
- **التوحيد** لما تطورت الإنسانية وصلت إلى توحيد الإله، أي: جمع الإنسان كثرة الآلهة في إله واحد مفارق، وفي هذه الحالة تتسع الشقة ويزداد التضاد بين الأشياء وبين المبدأ الذي تفسر به، وقد بلغت الحالة اللاهوتية أوجها في الكثلكة التي تؤلف تأليفًا عجيبًا التفسيرات الفائقة للطبيعة في فكرة إله واحد مدبر للكل بإرادته، فخصائص الحالة اللاهوتية هي أن موضوعها مطلق، وتفسيراتها فائقة للطبيعة، ومنهجها خيالي، هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فقد كانت المعاني اللاهوتية أساسًا متينًا مشتركًا للحياة الخلقية والاجتماعية، وكانت هذه المرحلة الأولى: مرحلة السلطة "سلطة الكهنة وسلطة الملوك"، وهكذا فالأديان لم تنزل من السماء وإنما هي وليدة التطور العقلي والفكري للإنسان، وهي تمثل مرحلة متأخرة يجب على الإنسان أن يتخلص منها.

وأما الحالة الميتافيزيقية فلقد تطورت فيها الإنسانية شيئا ما وحاولت تفسير الظواهر تفسيرا عقليا، وحاول العقل أن يصل إلى استكناه صميم الأشياء وحقائقها وأصلها ومصيرها، ولكنه كان يستبدل بالعلل المفارقة عللا ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء، وما هي إلا معانٍ مجردة جسمها له الخيال، فقال: بالعلة الأولى أو القوة الفاعلية والجوهر والماهية والنفس والحرية والغاية وغير ذلك من التعبيرات الفلسفية، والميل الذي ساقه في الحالة السابقة من الفيتشية إلى تعدد الآلهة فإلى التوحيد، يسوقه هنا أولا إلى الاعتقاد بقوى بعدد طوائف الظواهر، مثل القوة الكيميائية والقوة الحيوية، ثم إلى إرجاع مختلف القوى إلى قوة أولية هي "الطبيعة"، لذا تبلغ هذه الحالة أوجها في مذهب وحدة الوجود "Pantheism" الذي يجمع في "الطبيعة" جميع القوى الميتافيزيقية، وكل الفرق بينها وبين الحالة السالفة أن المجرد يحل محل المشخص، ويحل الاستدلال محل الخيال، أما الملاحظة فثانوية فيها جميعًا.

والحالة الميتافيزيقية فترة انتقال وأداة انحلال؛ هي فترة نقد عقيم ولكنه ضروري، إذ يتناول الاستدلال المعاني اللاهوتية فيبين التناقض فيها، وإذا كان العقل في هذه الحالة يضع معاني أو قوى موضع الإرادات المتقلبة، فإنه يضعف من سلطان القوى المفارقة هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فيبدو الانحلال في انتشار الشك والأنانية فيفصم الفرد الرباط الذي يربطه بالمجتمع، ويثقف العقل على حساب العاطفة، ويتصور الاجتماع ناشئًا من تعاقد الأفراد، وتام الدولة على مبدأ سلطة الشعب، ويحكمها القانونيون.

١.راجع المعجم الفلسفي د.مراد وهبة ص٤٨٠، ٥٣٧.

وأما الحالة الواقعية Positivism فهي قمة التطور الفكري حيث حل التفسير العلمي التجريبي محل التفسيرات السابقة، فأدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة، لذا قصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها وترتيب القوانين من الخاص إلى العام؛ فحلت هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، واستعاض عن العلل بالقوانين أي: العلاقات المطردة بين الظواهر، فيكون موضع العلم الإجابة عن السؤال "كيف"، لا عن السؤال "لم" وتكون الحالة الواقعية مختلفة عن الحالتين الأخريين في العناصر الثلاثة جميعًا التي هي الموضوع والتفسير والمنهج[١]، هذه الطريقة هي التي أفلحت في تكوين العلم، ويجب أن يحل العلم الذي تولد عنها محل الفلسفة؛ فكلما أمكن معالجة مسألة بالملاحظة والاختبار انتقلت هذه المسألة من الفلسفة إلى العلم واعتبر حلها نهائيًّا، أما المسائل التي لا تقع تحت الملاحظة فهي خارجة عن دائرة العلم، ويدل تاريخها على أنها لم تتقدم خطوة واحدة منذ أن وضعت، فهو ينطق بأنها غير قابلة للحل، كما أن نجاح العلم الواقعي يقضي بإمكانه وبأنه المجال الحقيقي للعقل، هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فتمتاز الحالة الواقعية بقيام علم الاجتماع[٢]، حيث إن هناك ارتباط واضح بين هذه الحالات الثلاث وبين التطور الاجتماعي، فقد أدت الحالة الأولى إلى وجود المجتمع الحربي والعسكري، وأدت الحالة الثانية إلى وجود المجتمع الذي يعتمد على التشريعات العقلية، وأدت الحالة الثالثة إلى وجود المجتمع الصناعي.[٣] وهكذا استأصل المذهب الواقعي فكرة المطلق، وأراد أن يقضي على اللاهوت والميتافيزيقا على السواء ويحل محلهما الواقعية التي لا تعترف بيقين للمعرفة إلا إذا كانت آتية لها عن طريق التجربة، وهذا المنطق يؤدي حتما إلى أن ما وراء الطبيعة، والمعرفة الآتية عنه، ليس لها صفة اليقين، وعلى هذا الأساس يكون الدين الذي هو وحي من كائن وراء الطبيعة ليس له صفة اليقين.[٤] ومن المعلوم أن الإنسانية قد بدأت بالتوحيد وإخلاص الوجه لله تعالى، وكان سيدنا آدم عليه السلام أول إنسان خلقه الله تعالى وأول رسول، فلم تبدأ البشرية بالشرك والتعدد والتفسيرات الخرافية لمظاهر الكون كما يدعي كونت، لأنه لم يكن موجودا عند بدء الخلق ولم يشاهد حالة الإنسانية الأولى حتى نسلم له أنها بدأت بالفيتشية؟؟!!

ويقرر «لانج Lange»[٥] أن أول ديانة إنسانية ظهرت في الوجود هي ديانة التوحيد، وأكد نظريته بأن وجود الانحراف عن التوحيد في تاريخ الإنسانية لا يثبت أنه الأصل لأن الديانة النصرانية كانت ديانة توحيد ثم انحرفت إلى التثليث، كما يرى «شميدت» أن التوحيد هو الأصل وهو فطري في النفس البشرية، وقد أثبت هذه الحقيقة من خلال بعض الدراسات الإنثروبولوجية

١.راجع المعجم الفلسفي د.مصطفى حسيبة ص٦٩٤، والمعجم الفلسفى د.مراد وهبة ص٦٨٥.
٢.تاريخ الفلسفة الحديثة المؤلف: يوسف كرم ص٣١٧، ٣١٨، وراجع فلسفة أوجست كونت، ليفي بريل ص٣٤، ٣٥ ترجمة د.محمد قاسم، د.السيد بدوي ١٩٥٢م.
٣.بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي لأستاذنا الدكتور سعد الدين السيد صالح ص٤٢، ٤٣.
٤.الفكر المادي الحديث د.محمود عتمان ص٨٨.
٥.هو فيلسوف لاهوتي ألماني برتستانتي ولد ١٦٧٠م وتوفي ١٧٤٤م من مؤلفاته قضية الله ردا على الإلحاد، راجع معجم الفلاسفة لطرابيشي ص٥٧٣.

على الأقزام وعند سكان أستراليا الجنوبية الشرقية، وقد انتهى بحث «شميدت» هذا إلى أن فكرة "الإله الأعظم" أو التوحيد الحقيقي توجد عند جميع الشـــعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس البشـــرية حيث عبدوا الله الواحد ووصفوه بالأبدية والأزلية والسرمدية، فالدراسات الأثرية تثبت أن عقيدة التوحيد والإيمان بالإله الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في المجتمعات البشـــرية، وما الوثنيات إلا أعراض طارئة وأمراض عقلية متخلفة".[١]

ومهما يكن من أمر فإنه إذا كان كونت قد تخيل أن البشـــريـة مرت فعلا بمراحـل ثلاث اللاهوتيـة والميتافيزيقية والوضـــعية فإنه قد بعُد عن المنهج العلمي وذلك لما يلي:

- إن كونت عندما استخدم التاريخ للتدليل على هذا القانون نظر إلى التاريخ الأوربي وادعى أن نهاية الأمر في المعرفة الإنسانية في الغرب هو الوقوف عند الواقعية، فلو نظرنا إلى تاريخ الغرب الفكري لرأيناه دينيا قبل تفلسف اليونان، ثم ميتافيزيقيا في عهد «**سقراط** Socrate»[٢] و«**أفلاطون** Platon»[٣]، ثم مال إلى التجربة والواقع عند «**أرسطو** Aristote»[٤]، وعادت الدورة من جديد فكانت المعرفة دينية في القرون الوسطى، ثم أصبحت عقلية في عصر التنوير، ثم تغلبت الواقعية على التفكير في القرن التاسع عشر[٥] "فكونت اخترع هذا القانون لرفض الدين النصراني، واعتباره مرحلة عفا عليها الزمن، فهو في نظره من اختراع المجتمع والناس، وبالتالي فهم قادرون على وضع أديان أخرى بديلة، لذا وضع كونت دين الإنسانية" لكي يحل محل الأديان السماوية.[٦]
- إن نقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب التطوري هي أن أنصاره جعلوا منه قانونا يستوعب التاريخ كله في شرط واحد، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل، ونفضت أو كادت تنفض يدها منها إلى غير رجعة، فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى طفولته وشبابه، ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية كلما ختمت شوطا رجعت عودا على بدء لكان الخطأ في هذه النظرية أقل بشاعة".[٧]

الخاتمة: يمكن لنا أن نذكر بعض النتائج المستخلصة من البحث فيما يلي:-

١) إن مذهب «داروين» في بالنشوء والارتقاء لم يكن جديدا كل الجدة بل كان مقلدا ومرددا لما سبقه من فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين وفلاسفة العصر الحديث.

٢) إن التطور عند مفكري الإسلام تطور إبداعي داخل

١.راجع الدين د.محمد عبد الله دراز ص١٠٧، ١٠٨ ودراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند د.محمد ضياء الرحمن الأعظمي ص٢٦ مكتبة الرشد ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢.فيلسوف يوناني ولد نحو عام ٤٧٠ق.م، ومات في أثينا عام ٣٩٩ق.م راجع معجم الفلاسفة لطرابيشي ص٣٦٥، وموسوعة أعلام الفلسفة د.محمد منصور ص١٧٥.

٣.فيلسوف إغريقي يوناني من أسرة أرستقراطية أثينية ولد نحو عام ٤٢٧ق.م، ومات نحو عام ٣٤٧ راجع معجم الفلاسفة لطرابيشي ص٧١ وموسوعة أعلام الفلسفة ص٦١.

٤.فيلسوف يوناني ولد عام ٣٨٤ق.م، وتوفي سنة ٣٢٢ق.م، راجع معجم الفلاسفة لطرابيشي ص٥٢ وموسوعة أعلام الفلسفة لمحمد منصور ص٤٥.

٥.راجع الفكر المادي الحديث د.محمود عبد الحكيم عتمان ص١٠٨.

٦.راجع بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي د.سعد الدين السيد صالح ص٤٦.

٧.الدين د.محمد عبد الله دراز ص٨٤، ٨٥ أوجست كونت د.مصطفى الخشاب ص٨٦.

النوع الواحد ولا يُغِّير حقائق الأشياء، والنواميس التي ترافق هذا التطور – عند الأشاعرة – أسباب عادية لا تأثير لها ألبتة والمؤثر الحقيقي هو الله تعالى، بينما هو عند النشوئيين تطور مادي ميكانيكي آلي بحت لا مكان فيه للإله.

٣) لقد أقام «تشارلز داروين» مذهبه في النشوء والارتقاء على عدة نواميس إذا وجدت وفعلت معا فإن التطور في الطبيعة لابد وأن يكون حتميا وهي تنازع البقاء وتكون التباينات وإمكان انتقال الصفات بالوراثة والانتخاب الطبيعي.

٤) إن ناموس الانتخاب الطبيعي هو الأساس الذي ترتكز عليه نظرية النشوء والارتقاء بأكملها في النتيجة، فقانون الوراثة كما ينقل التباينات ينقل أيضا جميع الصفات التي يحملها الأصل إلى الفرع، وهذه الصفات منها النافع ومنها الضار، ثم تتوارث الفروع هذه الصفات النافعة جيلا بعد جيل، وبعد مرور آلاف الأجيال يبلغ الامتياز حدا يجعل من الفرد الممتاز نوعا جديدا، وهذا هو قانون الانتخاب الطبيعي الذي يراه داروين سببا لتكوين الأنواع الحية الموجودة اليوم على سطح الأرض.

٥) لقد اعتمد «داروين» في التطور على عدد من العلوم الطبيعية كعلم التشريح لوجود التشابه بينهما في التركيب التشريحي والأطوار الجنينية المبكرة للحيوانات المختلفة تتشابه إلى حد كبير وبقايا الحفريات تشكل سلسلة كاملة من الأشكال التي عاشت في الأزمنة السابقة من أدناها إلى أرقاها مما يدل على نمو تدريجي للكائنات يبدأ من كائنات بسيطة للغاية إلى كائنات أكثر تعقيدا وظهور العضلات والتراكيب الأثرية في الإنسان يرجع إلى صفات فقدها الإنسان منذ القدم ومراحل قطعتها أسلافه خلال انقلاباتها النشوئية العديدة.

٦) يرى الشيخ الجسر أن مذهب داروين عند ثبوته لا يتعارض تعارضا قطعيا مع أحكام القرآن ولا مع الإيمان بوجود الخالق العظيم؛ فيجب أن نؤمن بأن الله تعالى هو الخالق للعالم ولما فيه من أنواع، وبعد هذا لا فرق بين القول بمذهب الخلق أو القول بمذهب النشوء والارتقاء من مادة أصلية خلقها الله تعالى ثم كوَّن منها الأنواع وفرَّعها بطريق النشوء والارتقاء وفق نواميس وضعها الله في هذا الكون.

٧) يقرر الشيخ الجسر أن مذهب النشوء والارتقاء لا يزال مذهبا مختلفا في صحته، ولم تقم الدلائل القاطعة التي من شأنها أن تحملنا على تأويل ظواهر النصوص المنزلة، وأنه متى قامت الدلائل القاطعة على صحة هذا المذهب جاز القول به، ووجب تأويل النصوص والتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل القاطع.

٨) إن النص المتعين المعنى من نصوص الشريعة لا يوجد في العقل ما يناقضه ولا يجوز تأويله، وأما النص الظاهر المعنى فلا يجوز تأويله وصرفه عن معناه المتبادر منه إلا إذا قام في العقل دليل قاطع على ما يناقض معناه الظاهر وإنما جاز حينئذ تأويله؛ لأن الجمود على اعتقاد المعنى المتبادر منه ورفض ما يدل عليه الدليل القاطع يقتضي هدم الأصل وهو العقل الذي ثبت به رسالة الرسول المتكلم بتلك النصوص الشرعية، فإذا هدم الأصل هدم الفرع لا محالة، فرفض الدلائل العقلية رجوع على الدلائل النقلية بالنقض وهو خلاف المطلوب.

٩) إن المباحث المتعلقة بالعلوم الكونية من كيفية خلق العالم والنواميس القائمة في السماوات أو في الأراضين وأمثال ذلك ليس من مقاصد الشريعة بل هذه المباحث هي معارف تتوصل الناس إليها بعقولهم فربما ينتفعون بها في دنياهم وتكتفي الشريعة بذكر شيء من أمرها على قدر ما يكون له دخل في مقاصدها الأصلية ليكون ذكر ذلك دليلا عقليا للناس على وجود الله الخالق.

١٠) يقرر الجسر أن الذي ورد في الشريعة الإسلامية من النصوص المتواترة أو المشهورة بشأن خلق العالم وتنوع الأنواع فيه إنما هي نصوص لم يبيَّن فيها الله تعالى كيفية تفاصيل الخلق وكيفياته وإذا ثبتت الفروض التي ذكرها النشوئيون بالدلائل القاطعة التي لا تحتمل النقيض ولا مجال للعقل في رفضها، فإن المسلمين يقولون بها إذ لا شيء من النصوص التي ذكرت في القرآن الكريم ينافي القول بهذا التكوين مع اعتقاد المسلمين أن الله تعالى هو الذي أوجد الشمس وكونها وفصل منها الكواكب والأرض على الكيفية التي تذكرونها، والنواميس التي قال النشوئيون بها تكون عند المسلمين أسبابا عادية لا تأثير لها في نفسها، والمؤثر الحقيقي هو الله تعالى ولا فرق عندنا بين أن نعتقد أن الله تعالى أوجد أنواع هذه العوالم بطريق الخلق أو أوجد أنواع هذه العوالم بطريق النشوء فكل من هذين الاعتقادين لا ينافي الاعتقاد بوجود الله تعالى وأنه الخالق لهذه العوالم في كل حال.

١١) يقرر الشيخ الجسر أن النصوص المعتمدة في الاعتقاد التي وردت في الشريعة المحمدية في شأن خلق عوالم الأرض أن نعتقد أن الله تعالى خلق كل نوع مستقلا ابتداءً، ولم يخلقه بطريق النشوء وإن كان الله قادرا على كلتا الصورتين، وأما أن كل نوع خلقه دفعة واحدة أو بتمهل وترق بسبب نواميس وضعها الله فهذا سبيله عندنا التوقف، إذ لم يأت في الشريعة ما يفيد القطع بأحد الأمرين.

١٢) إن الجسر يؤكد على أن الإنسان الأول خلق مستقلا لا بطريق النشوء لأن ظواهر النصوص القرآنية تؤكد على ذلك، ولا يجوز تأويل الظاهر إلا عند تعذر حمل المعنى عليه، لو كان مخلوقا بنشوء وارتقاء لكان الحكمة تقتضي أن يشرح الله تعالى تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه في تفصيل خلق ذريته.

١٣) يقرر الشيخ الجسر أن هذه النواميس التي اعتمد النشوئيون عليها ظنية لاحظ لها من اليقين على النشوء والارتقاء، فلا مانع من حصول تنازع البقاء، ولا مانع أيضا من أن ينتج عن هذا الناموس أن بعض الأنواع تبقى وبعضها يهلك، لكن المرجع في كل ذلك إلى الله تعالى الخالق، وناموس التباينات وإن كان جائزا عقلا والتغير به جائز أيضا لكن كل ذلك داخل تحت تصرف القدرة الإلهية وقد جعله الله تعالى في المخلوقات عاما لأجل التمايز.

١٤) إن الشبه التي تمسك بها النشوئيون الدهريون باطلة لأن العالم حادث، كما أن عجز عقول البشر عن تصور الإله لا يلزم منه عدم وجوده إذ أن كثيرا من الحقائق لم نتمكن من تصورها حق التصور وتكون في الحقيقة موجودة، وعدم تصور حقيقة الأمر لا يكون دليلا على عدمه في نفسه، وهؤلاء الدهريون الماديون يطلبون ربهم في المحسوسات وما يتشكل في

الأوهام، ويتقدر في مجاري الوساوس وخواطر الهواجس، وهذا حيد بالكلية عن صفات الإلهية، فاللبيب من ترك الوهم والخيال جانبا، ولم يتخذ غير البرهان والدليل صاحبا.

هذا وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

الأخلاق النظرية للأستاذ أبو بكر ذكري، دار الفكر العربي، ١٩٦٥م.

آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي، تقديم ألبير نصري نادر، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت.

أساس التقديس في علم الكلام، لفخر الدين الرازي مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

أسس الفلسفة د.توفيق الطويل، دار النهضة العربية، القاهرة.

الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د.يحي هاشم حسن فرغل، دار المعارف ١٩٨٤م.

الإسلام يتحدى للأستاذ وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان تقدين د.عبد الصبور شاهين مكتبة الرسالة.

أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدسة د.موريس بوكاي، ترجمة فوزي شعبان، المكتبة العلمية.

أصل الأنواع ونشأتها بالانتخاب الطبيعي داروين، ترجمة اسماعيل مظهر، دار العصور للطباعة ١٩٢٨م.

أضواء على الفلسفة اليونانية د.صلاح عبد العليم، دار الطباعة المحمدية ١٩٩٤م.

أضواء على الفلسفة اليونانية د.أحمد عبده الجمل، دار الطباعة المحمدية، ٢٠٠٥م.

الأعلام لخير الدين الزركلي دار العلم للملايين ٢٠٠٢م.

الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي تحقيق د.السيد أحمد عبد الغفار، دار الطباعة المحمدية، ١٩٩١م.

الله للأستاذ عباس محمود العقاد – نهضة مصر للطباعة.

الإنسان في القرآن الكريم "المبدأ والمصير" د.صلاح عبد العليم، مطبعة الفجر الجديد ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

أم القرى عبد الرحمن الكواكبي دار الرائد العربي – لبنان/بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

انهيار الشيوعية أمام الإسلام د.سعد الدين صالح دار الأرقم ١٩٩٣م.

أوجست كونت د.مصطفى الخشاب مطبعة لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى.

بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي لأستاذنا الدكتور سعد الدين السيد صالح دار الصحابة، جدة.

تاريخ الأخلاق د.محمد يوسف موسى، الطبعة الثالثة، مطابع دار الكتاب العربي، ١٣٧٣هـ-١٩٥٣م.

تاريخ الفلسفة الحديثة المؤلف: يوسف كرم، مكتبة الدراسات الفلسفية.

تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م.

تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية، للأستاذ أبو بكر ذكري، دار الفكر العربي ١٩٦٥م.

تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المحقق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الثالثة – ١٤١٩هـ.

التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب دار الفكر العربي القاهرة.

تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي، تحقيق د.سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة السابعة.

جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر الطبري، لمحقق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية للشيخ حسين الجسر، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م.

حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي، الدار المصرية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

خلاصة الميتافيزياء د.محمد يعقوبي دار الكتاب الحديث ١٤٢٢هـ.

داروين ونظرية التطور لشمس الدين آق بلوت، ترجمة أورخان محمد علي، دار الصحوة.

دراسات في العقيدة الإسلامية د.شوقي إبراهيم علي عبد الله، دار الهدى للطباعة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

دراسات في فلسفة الأخلاق د.محمد عبد الستار نصار، دار القلم.

دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند د.محمد ضياء الرحمن الأعظمي مكتبة الرشد ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

الدين د.محمد عبد الله دراز، دار القلم.

الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغاني تحقيق محمد حامد بدون.

الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية، للشيخ حسين الجسر، طبعت على نفقة السيد حسن القرق، بيروت.

الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين، تحقيق د.علي سامي النشار، د.فيصل عون، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٦٩م.

شرح بخنر على مذهب داروين ضمن كتاب فلسفة النشوء والارتقاء د.شبلي الشميل، دار مارون عبود، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

شرح المقاصد، لسعد الدين التفتازاني، دار المعارف النعمانية – باكستان الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

الطبيعة وما بعد الطبيعة، للأستاذ يوسف كرم، مطبعة كلمات عربية للترجمة والنشر ٢٠١٢م.

العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث لأستاذنا الدكتور سعد الدين السيد صالح دار الصفا، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية لإمام الحرمين الجويني، تحقيق زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث.

على أطلال المذهب المادي للأستاذ محمد فريد وجدي مطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر ١٩٣٠م.

غاية المرام في علم الكلام لسيف الدين الآمدي المحقق: حسن محمود عبد اللطيف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — القاهرة.

غرائب التفسير وعجائب التأويل لأبي القاسم برهان الدين الكرماني دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن — بيروت.

فتح القدير المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت الطبعة الأولى – ١٤١٤هـ.

فجر الفلسفة اليونانية د.أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.

فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء – أرنست هيكل، ترجمة حسن حسين، مطبعة الشباب، القاهرة، ١٩٢٤م.

الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، د.محمود عتمان، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، ١٩٩٩م.

فلسفة أوجست كونت، ليفي بريل، ترجمة د.محمد قاسم ١٩٥٢.

الفوز الأصغر للشيخ الإمام ابن مسكوية، بيروت ١٣١٩هـ.

قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن لنديم الجسر، طرابلس، لبنان.

قصة الصراع بين منطق اليونان ومنطق المسلمين د.سعد الدين صالح، دار الأرقم، ١٩٩٠م.

قصة الفلسفة اليونانية د.أحمد أمين، د.زكي نجيب محمود الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية ١٩٣٥م.

قوانين الفكر بين الاعتقاد والإنكار لأستاذنا الدكتور سعد الدين السيد صالح، المكتب العلمي الحديث للطباعة.

كبرى اليقينيات الكونية د.محمد سعيد البوطي دار الفكر ١٩٩٧م.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ.

كواشف زيوف لعبد الرحمن حَبَنَّكَة، دار القلم، دمشق١٩٩٠م.

المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي د.محمد المسير، دار المعارف.

مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات النسفي حققه يوسف علي بديوي دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م.

معالم أصول الدين للإمام الرازي، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي – لبنان.

معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين البغوي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٠هـ.

المعجم الفلسفي "معجم المصطلحات الفلسفية"، مراد وهبة، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

المعجم الفلسفي د.مصطفى حسيبة، الطبعة الأولى، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩م.

معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، الطبعة الثالثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م.

معجم المؤلفين، لعمر بن رضا كحالة مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

المقدمة لابن خلدون، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء لإسماعيل مظهر المكتبة العصرية ١٩٢٤م.

المنطق واتجاهاته القديمة والحديثة والمعاصرة د.سعد الدين السيد صالح دار الهدى ١٩٨٣م.

المواقف لعضد الدين الإيجي بشرح الجرجاني تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، لبنان، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م.

موسوعة أعلام الفلسفة، محمد أحمد منصور، الطبعة الأولى، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠١م.

موقف السلف من المتشابهات لأستاذنا الدكتور محمد عبد الفضيل القوصي، إدارة التحرير والنشر بالرابطة العالمية لخريجي الأزهر.

موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين للشيخ مصطفى صبري دار إحياء التراث بيروت ١٤٠١هـ.

نظرية التحليل النفسي عند فرويد في ميزان الإسلام لأستاذنا الدكتور سعد الدين السيد صالح، دار الصحابة بجده ١٩٩٤م.

هكذا تكلم زرادشت للفيلسوف فردريك نيتشة ترجمة فيلكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية ١٩٣٨م.

Sheikh Hussein Al-Gesr's View Of The Evolution Theory

A. M. A. Abdullah
Department of Islamic culture -Faculty of education-Jazan University-KSA.

Abstract

This research discusses the evolution theory, a materialistic theory hypothesizing that a few species evolved automatically across time. Observing the embryological and anatomical similarities between animals and humans some scholars believed in this theory. However, Sheikh al-Gesr sees it as a hypothesis lacking in evidence. Islamic thinkers do believe that this evolution theory might be a fact, which was originally created by God; while materialistic scholars ask their God to concretize whatever is abstract, which is a sort of challenge to Allah and his glorious traits. Those who seek evidence and avoid illusions are the knowledgeable persons.

Keywords: Evolution- Development- Sheikh Hussein AlGesr- Survival for the fittest- Natural selection.

Permanent address: College of Islamic Fundamentals and Preaching, AlAzhar University, Zagazig, Egypt.
E-mail: dr.elsayed11@yahoo.com
ردمد: ١٦٥٨-٦٩٠٥